

عَمْرُو بْنُ الْحَرْثِ طَبِيبٌ

تأليف: محمد ضيا

مراجعة: د. أحمد حطيط

دار الفكر اللبناني
بيروت

دار الفكر اللبناني

للطباعة والنشر

كورنيش المتزعة - تجساه غلوب بـ ٨٦٣٣٩٢

هاتف: ٣١١٥٧٨ - ٨٦٣٣٩٢

فكس: ٤٦٩٩ أو ١٤/٥٤٩٠

تلكس: DAFKLB 23648 LE - بيروت، لبنان

جميع الحقوق محفوظة للنشر
الطبعة الأولى ١٩٩١

مطابع يوسف عيسى
بيروت - هاتف: ٨٣٧٠٣٧ - ٨٣٧٥٤٩ - ٤٦٠٧٤٣

مقدمة

إذا حَصِيتَ العِظَماءَ والفُقهَاءَ والعِلماءَ ، أَلِفِيتَ عَمْرَ فِي الطَّلِيعَةِ . فَلَوْلَمْ يَكُنْ لَهُ إِلَّا فَقْهُهُ لَكَانَ بِهِ عَظِيماً .

وإن عَدَدَتِ الخُطباءَ البُلغَاءَ ، كَانَ اسْمُ عَمْرٍ مِنْ أَوَائِلِ الأَسْمَاءِ .

وإذا ذَكَرْتَ عِباقرَةَ المِشرِّعِينَ ، أَوْ نَوَابِغَ القُوَّادِ العِسكرِيِّينَ ، أَوْ كِبَارَ الإِدَارِيِّينَ النَاجِحِينَ ، وَجَدْتَ عَمْرَ إِمَاماً فِي كُلِّ جَمَاعَةٍ ، وَعَظِيماً فِي كُلِّ طَائِفَةٍ .

وإن اسْتَحْرَيْتَ العِظَماءَ ، الَّذِينَ بَنَوْا دَوْلًا وَتَرَكَوْا فِي الأَرْضِ أَثْراً ، لَمْ تَكَدْ تَجِدُ فِيهِمْ أَهَمَّ مِنْ عَمْرٍ .

وهُوَ فَوْقَ ذَلِكَ كُلِّهِ عَظِيمٌ فِي أَخْلَاقِهِ ، عَظِيمٌ فِي نَفْسِهِ . . . !

الفصل الأول

عمر بن الخطاب

نسبه وولادته

هو عمر بن الخطاب ، بن نفيل ، بن عبد العزى . . . بن مضر بن نزار ، بن معد ، بن عدنان .

وأمه حنتمة بنت هاشم بن المغيرة ، بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، أخت المغيرة بن هشام ، المكنى في الإسلام بأبي جهل .

أما ولادته : فقليل إنها كانت بعد عام الفيل بثلاث عشرة سنة ، أو قبل الفجار الأعظم (حرب الفجار) بأربع سنين ، وكان الفجار قبل البعثة بستٍ وعشرين سنة ، وكانت سن رسول الله ﷺ أربع عشرة ، فمولد عمر يكون إذ ذاك قبل البعثة بثلاثين سنة .

أوصافه وشخصيته

كان عمر أبيض اللون ، تعلوه حُمرة ، حسن الخدين ، غليظ القدمين والكفَّين ، ضخم الجثة ، أصلع شديد الصلع ، أجلع قد انحسر الشعر عند جانبي رأسه . أعسر أيسر . كان يمشي فيشرف

على الناس كأنه راكب على دابة ، ما يكون مع قوم قط إلا رُئي كأنه فوقهم .

وكان قوياً شديداً ، لا واهناً ولا ضعيفاً . إذا مشى أسرع ، ووطئ الأرض وطأً شديداً .

وكان جهوري الصوت ، يصيح الصيحة فيكاد من يسمعها يصعق ، ويغشى عليه .

إذا تكلم أسمع ، وإذا مشى أسرع ، وإذا ضرب أوجع .

يهوى المصارعة ، وركوب الخيل ، والفروسية . . تذوق الشعر ورواه ، وكان يسمع الشعراء في عكاظ وفي غير عكاظ ، ويحفظ عنهم ويروي ما يروقه من شعرهم ، ثم إنه برز في معرفة أنساب العرب .

وكان جيّد البيان ، حسن الكلام ، اشتهر بالفراصة وحب التفرس والإستنباط بالنظرة العارضة .

اتصف عمر بالغلظة التي ورثها عن أبيه وقسوته عليه في صباه ، ثم أعانته قوة بدنه على بقائها . كما اتصف باعتزازه بنفسه ، مما جعله يتعصب لرأيه ، فلا يقبل فيه جدلاً ، وبلغ به ذلك إلى أن يناضل عن رأيه بيد البطش كما يناضل عنه بحدّة اللسان . لكن ذلك لم يمنعه

من أن يقلب آراء غيره فيما بينه وبين نفسه ليكون أبلغ حجة في دفعها ، وأقوى يداً في القضاء عليها .

حارب عمر ، في جاهليته ، الخارجين على عبادة الأصنام من صابئة وغيرها . وعندما بُعث الرسول ﷺ إلى قومه يدعوهم للهدى ودين الحق ، كان عمر أشد أهل مكة خصومة للدعوة الجديدة ، ومحاربة لها ، وسعياً لردع الذين اعتنقوها ، إلا أن عقل عمر ، غلب ثورة غضبه ، فكدف بجاهليته جانباً وآمن بمحمدٍ ليكون : « الفاروق » الذي يتحدث الناس باسمه في إجلال وإكبار .

نشأته

نشأ عمر ، في طفولته وصباه ، نشأة أمثاله من أبناء قريش ، وامتاز عليهم بأنه كان ممن تعلّم القراءة ، وهؤلاء كانوا قليلين جداً ؛ فلم يكن في قريش كلها ، حين بُعث النبي ﷺ ، غير سبعة عشر رجلاً يقرأون ويكتبون .

عاش خمساً وستين سنة ، أمضى منها ثلاثين سنة في الجاهلية .

وكان مُوكلاً بالسفارة لقريش ؛ فكانوا إذا وقعت حرب بينهم وبين غيرهم ، بعثوه سفيراً للمفاوضة عنهم ، وإن نافرهم منافر ، أو فاخرهم مفاخر ، رضوا به منافراً ومفاخراً .

ولم يكن أبوه الخطاب من وجوه قريش ، ولا من رؤسائها ، بل كان رجلاً فظاً غليظاً يكلفه رعي إبله ؛ فكان يُتعبه إذا عمل ، ويضربه إذا قصّر . وهكذا نشأ عمر نشأة شعبية ، ذاق فيها مرارة الحياة ، وشظف العيش ، واكتوى بنارها .

وبشكل عام ، فقد كان عمر قبل إسلامه خبيراً بالحياة في شرورها ، فلما جاءت ساعة الصفر من حياته (إسلامه) ، انقلب من اليسار إلى اليمين ، دخل إلى الإسلام ، دخول الخبير بالأعيب الأشرار ، فاكتملت بذلك شخصيته وتوازنت عبقريته .

ألقابه

لُقّب عمر بن الخطاب بألقاب عديدة ، كان من بينها : الفاروق ، وخليفة خليفة رسول الله ﷺ . أما أبرزها ، فكان لقب أمير المؤمنين الذي عُرفَ ، واشتهر به . أما سبب هذا اللقب فيعود ، كما يروى ، إلى أن عمر بن الخطاب كتب إلى عامله على العراقيين : « أن ابعث إليّ برجلين جليدين نبيلين أسألهم عن أمر الناس ! » .

فبعث إليه بُعدي بن هاشم ، وليبد بن ربيعة ، فأناخا راحلتيهما بفناء المسجد ، ثم دخلا إلى المسجد ، فاستقبلا عمرو بن العاص . وقالاه : استأذن لنا علي أمير المؤمنين !

فأجابهما عمرو بن العاص : أنتما ، والله ، أصبتما اسمه ،
وهو الأمير ، ونحن المؤمنون !

ثم انطلق حتى دخل على عمر ، وقال له : يا أمير المؤمنين !
فقال عمر : لتخرجنَّ مما قلت أو لأفعلن !! .

قال عمرو : يا أمير المؤمنين ، بعث عامل العراقين بُعدي بن
حاتم ، وليد بن ربيعة ، فأناخا راحلتيهما بفناء المسجد ، ثم
استقبلاني ، وقال : استأذن لنا على أمير المؤمنين !
فقلت : إنما ، والله ، أصبتما اسمه ، وهو الأمير ، ونحن
المؤمنون !

زوجاته وأولاده

تزوَّج عمر في الجاهلية ثلاث نسوة :

الأولى : قريبة بنت أمية المخزومية ، وهي أخت أم سلمة (أم
المؤمنين) .

والثانية : أم كلثوم بنت عمرو بن جَرُول الخزاعية ، فلما كانت
الحديبية ، ونزل قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَمْسِكُوا بِعَصَمِ الْكَوَافِرِ ﴾
طلَّقها .

والثالثة : زينب بنت مظعون الجمحي ، وقد أسلمت وكانت

من المهاجرات ، وهي أم عبد الله وحفصة وعبد الرحمن .

وفي الإسلام تزوج عمر من :

أم كلثوم ، بنت علي بن أبي طالب ، فولدت له زيدا الأكبر ورقية .

وتزوج من جميلة بنت عاصم بن ثابت ، فولدت له عاصماً ، وكانت جميلة هذه تدعى عاصية ، فغير النبي اسمها ، وقال : بل أنت جميلة .

ثم تزوج أم حكيم ، بنت الحارث بن هشام المخزومية ، فولدت له فاطمة .

ثم تزوج عاتكة بنت زيد بن عمر ، وأخت سعيد بن زيد ، وهي ابنة عم عمر ، وكانت من المهاجرات ، وعلى جانب كبير من الفصاحة والجمال ، فولدت له عياضاً .

ثم تزوج سبيعة بنت الحارث ، أول امرأة أسلمت بعد صلح الحديبية . فلما أنزلت آية الإمتحان امتحنها النبي ﷺ ، وردَّ على زوجها مهر مثلها ، وتزوجها عمر . أما لُهيَّة فأم ولد ، وولدها عبد الرحمن الأوسط ، وفكيهة ، أم ولد ، أنجبت زيدا أصغر ولده ، كما أن عبد الرحمن الأصغر ، أمه أم ولد ، واختلف المؤرخون في اسمها .

وقد تزوج عمر أربعاً من تلك النساء بمكة ، وخمساً بعد هجرته
إلى المدينة ، على أن جَمَعَهُنَّ لم يكتمل قط في بيته . أضف إلى
ذلك أن عمر خطب امرأتين ، فما قبلتا منه الخشونة وشِدَّتِه على
النساء .

الفصل الثاني

إسلام عمر

المشهور أن عمر بن الخطاب أسلم بعد خمسة وأربعين رجلاً وإحدى وعشرين امرأة ، وتزيد روايات في هذا الصدد ، وتنقص أخرى منه .

وقد لاحظ ابن كثير ، في « البداية والنهاية » ، أن عمر أسلم بعد هجرة المسلمين إلى الحبشة ، وأن عدد الذين هاجروا إليها قارب التسعين بين رجال ونساء ، وأن عمر ذهب بعد هجرتهم يريد محمداً وأصحابه المسلمين بدار الأرقم ، عند الصفا ، فكانوا أربعين ، رجالاً ونساءً .

أما الروايات في سبب إسلامه ، فتختلف وأشهرها :

أن عمر ضاق ذرعاً بما فرقت دعوة « محمد » من كلمة قريش ، ومما حمله وأمثاله على إيذاء من أسلموا ليفتنوهم عن دينهم ، ويردوهم إلى دين قومهم . فلما أشار محمد على أصحابه أن يتفرقوا في الأرض فراراً إلى الله بدينهم ، ونصح لهم أن يذهبوا إلى أرض

الحبشة ، وآهم عمر يترحلون ، رُقْ لهم وشعر بالوحشة لفراقهم .

وقد رُوي عن أم عبد الله بنت أبي حنثة أنها قالت : « والله ، إنا لنترحل إلى أرض الحبشة إذ أقبل عمر بن الخطاب حتى وقف عليّ ، وهو على شركه ، وكنا نلقى منه البلاء ، أذى لنا وشدة علينا ، وقف ، وقال : إنه للإنطلاق يا أم عبد الله ؟ !

قلت : نعم ! والله ، لنخرجن في أرض الله ، آذيتمونا وقهرتمونا حتى يجعل الله مخرجاً .

فقال : صحبكم الله ! ورأيت له رقة لم أكن أراها . ثم انصرف ، وقد أحزنه فيما رأى خروجنا . وعاد زوجها فذكرت له هذا الحديث الذي دار بينهما وبين عمر ، وأنها طمعت في إسلامه . فقال لها : « لا يُسلم هذا حتى يُسلم حمار الخطاب ! » .

وتجري الرواية بأن عمر حزن لترحل قومه عن وطنهم ، بعد أن عذّبوا وأذوا ، وجعل يفكر في الوسيلة التي تنقذهم مما هم فيه ، فرأى أن هذا الأمر لا ينجح فيه إلاّ علاج واحد ، وعزم على قتل محمد ، فليس إلى اجتماع كلمة قريش ، برأيه ، مع بقائه بينها سبيل .

فغدا يوماً متوشحاً سيفه يريد رسول الله ﷺ ورهطاً من

أصحابه ، ذكر أنهم اجتمعوا بدار الأرقم عند الصفا ، وهم قريب من أربعين ما بين رجال ونساء . وفيما هو في طريقه لقيهُ نُعَيْم بن عبد الله ، فقال له : « أين تريد ؟ » .

قال : « أريد محمداً ، هذا الصابىء الذي فرَّق أمر قريش وسفَّه أخلاقها ، وعاب دينها ، وسبَّ آلهتها ، فأقتله ! » .

قال نُعَيْم : « والله ، فقد عزتك نفسك يا عمر ، أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي في الأرض وقد قتلت محمداً ! أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟ » .

قال : « وأي أهل بيتي ؟ » .

قال : « ختنك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمر ، وأختك فاطمة بنت الخطاب ، فقد ، والله ، أسلما ، وتابعا محمداً على دينه فعليك بهما ! » .

فرجع عمر عامداً إلى أخته وختنه (صهره) ، وعندهما خباب في مخدعٍ لهم أو في بعض البيت ، وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذاها ، وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خباب عليهما ، فلما دخل قال :

« ما هذه الهينة التي سمعت ؟ » .

قالا له : « ما سمعت شيئاً ! » .

قال : « بلى ، والله ، لقد أُخبرت أنكما تابعتا محمداً على دينه ، وبطش بختنه سعيد بن زيد ، فقامت إليه أخته فاطمة لتبعده عن زوجها ، فضربها وشجّها .

فلما فعل ذلك ، قالت له أخته : « نعم ، قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله ، فاصنع ما بدا لك ! » .

فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ، ندم على ما صنع فارغوى ، وقال : « ما هذا الذي جاء به محمد ؟ » وقرأ سورة طه ، ثم قال : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه ! » .

فلما سمع ذلك خباب خرج إليه ، وقال له : « يا عمر ، والله ، إني لأرجو أن يكون الله قد خصّك بدعوة نبيّه ، فإني سمعته ، وهو يقول : « فالله ، الله ، يا عمر ! » .

فقال له عند ذلك عمر : « دلّني يا خباب على محمد حتى آتيه فأُسْلِمَ » .

فقال خباب : « هو في بيت عند الصفا ، معه فيه نفر من أصحابه » .

وفي رواية أخرى يقول عمر بن الخطاب داخضاً هذه الحادثة : « فأخرجوا (أخته فاطمة وزوجها وخباب) إليّ صحيفة فيها : بسم

الله الرحمن الرحيم ، فقلت : أسماء طيبة ، طاهرة : ﴿ طه . ما
أنزلنا عليك القرآن لتشقى . إلا تذكرة لمن يخشى . تنزيلاً ممن خلق
بالأرض والسموات العلى . الرحمن على العرش استوى . له ما في
السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى . وإن تجهر
بالقول فإنه يعلم السر وأخفى . الله لا إله إلا هو له الأسماء
الحسنى ﴾ .

فعظمت في صدري ، وقلت : من هذا فرّت قريش !

ثم إنه قرأ آيات أخرى ولما بلغ : ﴿ إني أنا الله لا إله إلا أنا
فاعبدني وأقم الصلاة لذكري ﴾ .

قال : « ما ينبغي لمن يقول هذا أن يعيد معه غيره ! دلوني على
محمد ﷺ » .

فخرج القوم الذين كانوا عند أخته ، يعني زوجها سعيد بن
زيد ، وخبّاب بن الأثر ، أحد الرجلين اللذين ضمّهما
المصطفى ﷺ إلى سعيد ، وكان خبّاب يقرئهم القرآن ، والرجل
الثالث لم يُعرف اسمه ، يتبادرون بالتكبير استبشاراً بما سمعوه من
عمر . وحمدوا الله تعالى ، ثم قالوا : « يا ابن الخطاب ، أبشر ،
فإن رسول الله ﷺ دعا يوم الإثنين ! » .

فقال : « اللهم أعز الإسلام بعمر ، وإنا نرجوا أن تكون دعوته لك ، فأبشر » .

ولما عرفوا من عمر الصدق ، قال عمر : « أخبروني بمكان رسول الله ﷺ ! » .

قالوا : « في أسفل الصفا » .

قال : فجئت إلى رسول الله ﷺ في بيت في أسفل الصفا ، وهي دار الأرقم ، وكان ﷺ مختفياً فيها بمن معه من المسلمين ، ويُقال له اليوم دار الخيزران .

ثم إن عمر قرع الباب ، وقام رجل من أصحاب رسول الله ﷺ ، فنظر من خلل^(١) الباب ، فرآه متوشحاً بالسيف . فرجع إلى رسول الله ﷺ ، وهو فزع ، وقال له :

« يا رسول الله ، هذا عمر بن الخطاب متوشحاً بالسيف ! » .

فقال حمزة بن عبد المطلب : « نأذن له ، فإن كان يريد خيراً بذلناه له ، وإن كان يريد شراً قتلناه بسيفه ! » .

فقال رسول الله ﷺ : « ائذن له » . .

(١) خلل : فتحة بين شيئين .

ونَهَضَ إليه رسول الله ﷺ حتى لقيه بالحجرة ، فأخذ بمجمع رداءه ثم جبذه به جبذة شديدة ، وقال له : « ما جاء بك يا ابن الخطاب ؟ فوالله ما أرى أن تنتهي حتى ينزل بك قارعة ! » .

فقال عمر : « يا رسول الله ، جئتُك لأومن بالله وبرسوله ، وبما جاء من عند الله » . فكبر رسول الله ﷺ تكبيرة عرف منها أصحابه أن عمر قد أسلم .

تلك هي أشهر الروايات في إسلام عمر .

وكما كان عمر شديداً على الإسلام في جاهليته ، فظاً في تعامله مع المسلمين ، فإنه في إسلامه ، كان قوياً ، جريئاً على الكفار والمارقين .

عن ابن مسعود أنه قال : « كان إسلام عمر عزّاً ، وهجرته نصراً وإمارته رحمة . والله ، ما استطعنا أن نصلي حول البيت ظاهرين حتى أسلم عمر » .

ثم إن عمر ، غداة إعلان إسلامه ، خاطب الرسول ﷺ بقوله : « يا رسول الله ، أَلَسْنَا عَلَى حَقٍّ إِنْ مِتْنَا وَإِنْ حِينَا ؟ » .

قال ﷺ : « بلى ، والذي نفسي بيده ، إنكم على الحق إن مُتُّم وإِنْ حَيِّتُمْ ! » .

قال : « ففيم الاختفاء ؟ والذي بعثك بالحق لتخرجن ! » .

وإذن رسول الله بالإعلان ، وخرج ﷺ في صَفَيْن : عمر في أحدهما ، وحمزة في الآخر يثور الغبار من مشيهم حتى دخل الرسول ﷺ المسجد ، فنظرت قريش إلى عمر وإلى حمزة ، فأصابتهم كآبة ، لم تصبهم قط من قبل ، وسماه رسول الله يومئذ : الفاروق .

لقد كان هذا الإعلان ، وهذه المسيرة ، على رغم تواضعها ، أول مظاهرة صامئة في الإسلام ، أريد بها إعلان الحق ونصرة الدين رغم أنف أعدائه .

وعن جُرأة عمر في إسلامه ، يقول ابن إسحق : « حدَّثني نافع عن ابن عمر قال : لما أسلم عمر بن الخطاب ، قال : « أي أهل مكة ، أنقل للحديث ؟ » .

فقالوا :

« جميل بن مَعْمَر » .

فخرج عمر ، وخرجت وراء أبي ، وأنا غُلِيم أعقل كل ما رأيت حتى أتاه ، فقال : « يا جميل ، هل علمت أنني أسلمت ؟ ! » فوالله ، ما راجعه الكلام حتى قام يجر رداءه ، وخرج عمر يتبعه ، وأنا مع أبي ، حتى إذا قام على باب مسجد الكعبة ، صرخ بأعلى صوته :

« يا معشر قريش ؛ إن عمر قد صَبَأ ! » .

فقال عمر : « كذبت ، لقد أسلمت ! » .

فثاوروه^(١) وقاتلوه حتى قامت الشمس على رؤوسهم ،
فَطَلَحَ^(٢) ، وعرشوا على رأسه قياماً ، وهو يقول : « اصنعوا ما بدا
لكم ، فأقسم بالله لو كنا ثلاثمائة رجل تركتموها لنا ، أو تركناها
لكم ! » .

ومما يُروى عن الإمام علي بن أبي طالب أنه قال :

« ما علمت أن أحداً من المهاجرين هاجر إلاً مختفياً ، إلاً
عمر بن الخطاب ، فإنه لما همَّ بالهجرة تقلَّد سيفه ، وتنكَّب قوسه ،
وانتضى في يده أسهماً ، واختصر عنزته^(٣) ، ومضى قبل الكعبة ،
والملا من قريش بفنائها ، فكان في البيت سبعاً متمكِّناً ، ثم أتى
المقام فصلَّى ، ثم وقف على الحلق^(٤) واحدة واحدة يقول لهم :
شاهت الوجوه^(٥) ! لا يرغم الله إلاً هذه المعاطس^(٦) من أراد أن يثكل
أمه أو يوتّم ولده ، أو يُرمل زوجته ، فليلقني وراء هذا الوادي ! » .

(١) فثاوروه : وثبوا عليه .

(٢) طلع : أعيا ، تعب .

(٣) العنزة : عصا كالرمح ، اختصرها : أي اعتمد عليها .

(٤) الحلق : مفرداً حلقة ، ويقصد القوم المجتمعين في حلقات .

(٥) شاهت الوجوه : قبحت .

(٦) المعاطس : الأنوف .

الفصل الثالث

عمر خليفة

مرض أبي بكر واستخلاف عمر

كانت مدة خلافة أبي بكر سنتين وشهوراً ، ثم مرض مرضه الذي مات فيه ، فدخل عليه ، أناس من أصحاب رسول الله ﷺ ومنهم عبد الرحمن بن عوف ، فقال له : « أصبحت بحمد الله بارئاً ! » .

فقال أبو بكر : « تراه ؟ » .

قال : « نعم ! » .

قال : « إني على ذلك شديد الوجع . وما لقيت منكم يا معشر المهاجرين أشد عليّ من وجعي ، إني وَلَّيتُ أَمْرَكُمْ خَيْرَكُمْ فِي نَفْسِي . فكلّكم وَرَمَ مِنْ ذَلِكَ أَنْفَهُ يَرِيدُ أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ لَهُ ، وَقَدْ رَأَيْتُمُ الدُّنْيَا قَدْ أَقْبَلَتْ وَلَمَّا تَقْبَلْ ، وَهِيَ مُقْبِلَةٌ حَتَّى تَتَّخِذُوا سِتْرَ الْحَرِيرِ ، وَنَضَائِدَ الدِّيْبَاجِ ، وَتَأْلَمُوا مِنَ الْإِضْطِجَاعِ عَلَى الصُّوفِ الْأَذْرَبِيِّ ، كَمَا يَأْلَمُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَنَامَ عَلَى مَسَكِ السَّعْدَانِ . وَاللَّهِ ، لِأَنْ يَقْدَمَ أَحَدُكُمْ فَتَضْرِبَ عُنُقَهُ فِي غَيْرِ حَدَثٍ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَخُوضَ غَمَرَاتِ الدُّنْيَا » .

ويُروى أن أبا بكر لما مرض دعا إليه عبد الرحمن بن عوف ،
فقال له : « أخبرني عن عمر بن الخطاب ! » .

فقال عبد الرحمن : « ما تسألني عن أمر إلا وأنت أعلم به
مني ! » .

قال أبو بكر : « وإن ! » . فقال عبد الرحمن :
« هو ، والله ، أفضل من رأيك فيه ! » .

ثم دعا عثمان بن عفان . فقال : « أخبرني عن عمر ! » فقال :
« أنت أخبرنا به » .

فقال : « على ذلك يا أبا عبد الله » .

فقال عثمان : « اللهم علمي به أن سريره خير من علانيته ،
وأن ليس فينا مثله » . فقال أبو بكر :

فقال عثمان :

« اللهم علمي به أن سريره خير من علانيته ، وأن ليس فينا
مثله » . فقال أبو بكر :

« يرحمك الله ، والله لو تركته ما عددتك ! » .

وشاور معهما سعيد بن زيد ، وأسيد بن حُضير وغيرهما من

المهاجرين والأنصار ، فقال أسيد : « اللهم أعلمه الخيرة^(١) بعدك ،
يرضى للرضى ، ويسخط للسخط الذي يسر خير من الذي يعلن ،
ولن يلي هذا الأمر أحد أقوى عليه منه » .

وسمع بعض أصحاب رسول الله ﷺ بدخول عبد الرحمن
وعثمان على أبي بكر وخلوتهما به . فدخلوا على أبي بكر ، فقال له
قائل منهم : « وما أنت قائل لربك إذا سألك عن استخلافك عمر
علينا ، وقد ترى غلظته ! » فقال أبو بكر :

« أجلسوني ، أبالله تخوفوني ، خاب من تزود من أمركم بظلم
أقول : اللهم ، استخلفت عليهم خير أهلك ، أبلغ عني ما قلت لك
من وراءك » . ثم اضطجع ، ودعا عثمان بن عفان ، فقال اكتب :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة
في آخر عهد بالدنيا ، خارجاً منها ، وعند أول عهده بالآخرة داخلاً فيها
حيث يؤمن الكافر ، ويوقن الفاجر ، ويصدق الكاذب ، إني
استخلفت عليكم من بعدي . . . » .

وأخذته عشية ، فذهب به قبل أن يسمي أحداً . فكتب
عثمان : عمر بن الخطاب .

(١) خيرة خلق الله : المصطفى ﷺ .

ثم أفاق أبو بكر ، فقال لعثمان : « اقرأ ما كتبت ! » . فقرأ عليه ذكر عمر .

فكر أبو بكر ، وقال : « أراك خفت أن تذهب نفسي في غشيتي تلك فيختلف الناس ، فجزاك الله عن الإسلام خيراً . والله ، إن كنت لها لأهلاً » . ثم أمره أن يكتب تمة الكتاب فكتب :

« فاسمعوا له وأطيعوا » ؛ فإن عدل فذلك ظني به ، وعلمي فيه ، وإن بدل ، فلكل امرئ ما اكتسب . والخير أردت ، ولا أعلم الغيب ، وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلبٍ ينقلبون ، والسلام عليكم ورحمة الله ! » .

ثم أمر بالكتاب فختمه ، ثم أمر عثمان ، فخرج بالكتاب مختوماً ، ومعه عمر بن الخطاب ، وأسد بن شعبة القرظي ، فقال عثمان للناس : « أتبايعون لمن في هذا الكتاب ؟ » .

قالوا : « نعم ! » .

فقرأه عليهم ، فأقبلوا على عمر يبايعونه .

ومما رُوي أن عمر قال لأبي بكر ، لما دعاه وأخبره بأنه اختاره : « لا حاجة لي فيها » .

فقال له : « لكن لها بك حاجة . قد رأيت رسول الله ﷺ وصحبته ، ورأيت إثرتهم أنفسنا على نفسه حتى إن كنا لنهدي لأهله

فضل ما يأتينا منه ، ورأيتني وصحبتني . وإنما اتبعت أثر من كان قبلي . والله ما نمت فحلمت ، ولا شبّهت فتوهّمت ، وإنى على طريقي ما زغت ! » .

ثم أخذ يوصيه ، وقال له :

« تعلم يا عمر أن الله حقاً في الليل لا يقبله في النهار ، وحقاً في النهار لا يقبله في الليل ، وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتّباعهم الحق . . . إن أول من أحذرك نفسك ، وأحذرك الناس ، فإنهم قد طمحت أبصارهم ، وانتفخت أوداجهم ، وإنّ لهم لحيرة عن ذلّة تكون ، وإياك أن تكونه ، وإنهم لن يزالوا خائفين لك فرقين منك ما خفت من الله وفرقته . لا تتمنّ على الله عزّ وجلّ غير الحق ، ولا تلقِ بيدك إلى التهلكة ! » .

ثم رفع يديه فقال : « اللهم ، أني لم أرْ بذلك إلّا صلاحهم ، وخفتُ عليهم الفتنة ، فعلمت فيهم ما أنت أعلم به ، واجتهدت لهم رأبي ، فولّيتُ عليهم خيرهم وأقواهم ، وأحرصهم على ما فيه رشدهم . وقد حضرني من أمرك ما حضرني ، فساخلفني فيهم منهم عبادك ونواصيهم بيدك ، واصلح لهم ولاتهم ، واجعله من خلفائك الراشدين يتبع هدى بني الرحمة ، وهدى الصالحين بعده ، واصلح له رعيته » .

بعد تولي عمر ، قعد في المسجد مقعد الخلافة ، فأتاه رجل

وقال له : « يا أمير المؤمنين ، أدنوك فإن لي حاجة ؟ » .

قال عمر : « لا ! » .

قال الرجل : « إذا أذهب ، فيغنيني الله عنك ! » . فتوجه ذاهباً ، فاتبعه عمر ببصره ، ثم قام ، فأخذ بثوبه ، وقال له :

« ما حاجتك ؟ » .

قال الرجل : « بغضك الناس ، وكرهك الناس ! » .

قال عمر : « ولم ويحك ؟ » .

قال الرجل : « للسانك وعصاك ! » .

فرفع عمر يديه ، فقال : « اللهم حببهم إليّ ، وحببني إليهم ! » .

قال الرجل : « فما وضع يديه حتى ما على الأرض أحب إليّ

منه » .

كما روي أن أهل الشام بلغهم مرض أبي بكر ، واستبطأوا الخبر ، فقالوا : « إننا لنخاف أن يكون خليفة رسول الله ﷺ قد مات ، وولي بعده عمر . فإن كان عمر هو الوالي فليس لنا بصاحب ، وإنّا نرى خلعه ! » .

قال بعضهم : « فابعثوا رجلاً ترضون عقله » . فانتخبوا لذلك

رجلاً ، فقدم على عمر . فلما أتاها ، قال له : « كيف الناس ؟ » .
قال : « سالمون صالحوون ، وهم كارهون لولايتك ومن شرك
مشفقون . فأرسلوني ، أنظر أحلو أنت أم مر ؟ » .
فرفع عمر يديه إلى السماء ، وقال : « اللهم ، حبّني إلى
الناس ، وحبّهم إلي ! » .

لماذا لجأ أبو بكر إلى طريقة الإستخلاف ؟

لم يشأ أبو بكر أن يتبع في اختيار من يحل محله الأسلوب
الذي اتبع في اختياره . ولجأ إلى طريقة جديدة هي أن يسمّي
للملأ واحداً في حياته ، وأن يطلب منهم اختياره بعد وفاته .

وقد برّر المؤرخون هذا الإجراء بالظروف الإستثنائية والصعبة
التي كانت تحيط بالقضية . فقد كانت خلافة أبي بكر قصيرة ،
 واجتماع السقيفة باحتمالاته ما يزال ماثلاً في مخيلته ، ورسول
الله ﷺ لم يوضع في قبره ، فكيف بالمسلمين بعد أن تحوّل الأمر من
نبوة إلى ما يشبه الملّك ، وبعد أن بدأت الأطماع الدنيوية تطل
برأسها ، وبعد أن أصبح الخلاف غير محصور بين المهاجرين
والأنصار ، بل دخلت فيه عناصر جديدة نتيجة لتحوّل المدينة إلى
عاصمة لدولة كبيرة تأمر فتطيعها جميع أرجاء الدولة .

وأهم من هذا كله ، فإن المسلمين كانوا يواجهون معارك

حاسمة ، في العراق وفي الشام ، ولا بد أن يتوافر ، إذ ذاك ،
الإستقرار السياسي وهدوء الجبهة الداخلية وتماسكها تداركاً لشتى
الإحتمالات .

خطة عمر في الحكم

أعلن عمر خطته في الحكم منذ اليوم الأول لخلافته ، فكان
أول ما تكلم به بعد ولايته أن قال :

« ثلاث دعوات إذا دعوت بها فأمنوا عليها :

« اللهم ، إني ضعيف فقوني . اللهم ، إني غليظ فليني .
اللهم ، إني بخيل فسخني .

لو علمت أن أحداً أقوى مني على هذا الأمر لكان ضرب العنق
أحب إليّ من هذه الولاية » .

ولما ولي ، صعد المنبر ، وقال :

« ما كان الله ليراني أني أرى نفسي أهلاً لمجلس أبي بكر ! » .

ثم نزل مِرْقاة (أي درجة) ، وحمد الله وأثنى عليه ، وقال :

« إقرأوا القرآن تُعرفوا به ، وتزيّنوا للعرض الأكبر يوم تعرضون
على الله ، لا تخفى منكم خافية ، إنه لم يبلغ حق ذي حق أن يطاع
في معصية الله .

ألا وإني أنزلت نفسي من مال الله بمنزلة ولي اليتيم . إن استغنيت استضعفت ، وإن افتقرت أكلت بالمعروف .

وبلغ من هيبة عمر أن الرجال كانوا يتفرقون ويتركون مجالسهم بالأقنية هيبة ، حتى ينظروا ما يكون من أمره . فلما بلغ ذلك عمر ، صاح في الناس : « الصلاة جامعة ! » .

فحضروا ، فجلس على المنبر ، حيث كان أبو بكر يضع قدميه ، فلما اجتمعوا ، وقف عمر ، وحمد الله تعالى ، وأثنى عليه بما هو أهله ، وصلى على النبي ﷺ ، ثم قال :

« بلغني أن الناس هابوا شدتي ، وخافوا غلظتي ، وقالوا : قد كان عمر يشتد علينا ، ورسول الله ﷺ بين أظهرنا ، ثم اشتد علينا وأبو بكر والينا دونه ، فكيف وقد صارت الأمور إليه ؟ . ومن قال ذلك فقد صدق . فقد كنت مع رسول الله ﷺ ، فكنت عبده ، وخادمه ، وكان من لا يبلغ أحد صفته من اللين والرحمة ، وكان كما قال الله تعالى : ﴿ بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً ﴾ فكنت بين يديه سيفاً مسلولاً حتى يغمدني ، أو يدعني فأقضي .

فلم أزل مع رسول الله ﷺ على ذلك حتى توفاه الله ، وهو عني راضٍ ، والحمد لله على ذلك كثيراً ، وأنا به أسعد . ثم ولي أمر

المؤمنين أبو بكر ، فكان من لا ينكرون دَعَتَهُ وكرمه ولينه ، فكنت خادمه وعونه . أخلط شدتي بلينه .

فاعلموا إن تلك الشدة قد أضعفت ، ولكنها إنما تكون على أهل الظلم والتعدي على المسلمين . فأما أهل السلامة والدين والقصد ، فأنا ألين من بعضهم لبعض ، ولست أدع أحداً يظلم أحداً ، ويتعدى عليه حتى أضع هذه على الأرض ، وأضع قدمي على الخد الآخر ، وحتى يدعن بالحق .

وإنني بعد شدتي تلك أضع خدي لأهل العفاف وأهل الكفاف ولكم عليّ ، أيها الناس ، خصال أذكرها لكم فخذوني بها لكم :

عليّ أن لا أجتبي شيئاً من خراجكم ، ولا ممن أفاء الله عليكم إلا من وجهه . ولكم عليّ إذا وضع في يدي ألا يخرج منها إلا في حقه . ولكم عليّ أن أزيد عطاياكم وأرزاقكم ، إن شاء الله ، وأسد ثغوركم . ولكم عليّ ألا ألقىكم في المهالك ، ولا أحجركم في ثغوركم . وإذا غبتم في البعوث ، فأنا أبو العيال حتى ترجعوا إليهم .

فاتقوا الله ، عباد الله ، وأعينوني على أنفسكم يكفها عني . وأعينوني على نفسي بالأمر المعروف والنهي عن المنكر ، وإحضاري النصيحة فيما ولّاني الله في أمركم . أقول قولي هذا ، وأستغفر الله لي ولكم » .

وتعتبر هذه الخطبة بياناً شاملاً كالبيان الوزاري في أيامنا
الحاضرة ، وخطبة كاملة للحكم ، وتحليلاً لجانب من سيرته مع
رسول الله ﷺ ومع أبي بكر ، وتعليلاً لما كان يبدو منه من الشدة .

الفصل الرابع

حركة الفتح في خلافة عمر

دوافع الفتح وهويته

كان العرب في جاهليتهم يتهيبون الفرس والروم ، ويخضعون لعاملين من عمالها : « اللخمي » عامل الفرس على العراق . « والغساني » عامل الروم على بلاد الشام . ويعظمونهما ويلقبونهما بألقاب الملوك ، وينظم شعراؤهم القصائد في مدحهما .

فلما ولي عمر ، كسر هذا السد ، ورفع للمسلمين راية الجهاد ، الجهاد الذي أمر الله به وحضَّ عليه ، وجعله ركناً من أركان الإسلام ، وفريضة من أعظم فرائضه . فلم يكن هذا الجهاد للفتح والغنيمة ، ولا للتوسع والسيطرة ، ولا للظلم والاستعمار ، بل كان لنشر دين الله ، ولإعلاء كلمته ، وإعطاء أهل كل أرض نصيبهم من رحمة الله وقسطهم من هدايته .

وإذا كان الرأي الشائع أن العرب هم الذين هاجموا الأقاليم المجاورة لهم في العراق والشام ومُضر ، فإن الحقيقة الثابتة أن حرب

العرب لم تكن حرباً هجومية بل كانت حرباً دفاعية ..

فالرسول ﷺ أمر بأن ينقل رسالته إلى العالم أجمع ، وقد بدأ بالأسلوب السلمي ، فأرسل كتباً إلى من جاوره من ملوك وحكام ، وعلى رأسهم كسرى ملك الفرس ، وقيصصر ملك الروم ، والمقوقس حاكم مصر ؛ فمنهم من ردَّ بطريقة مهذبة ، ومنهم ، كملك الفرس ، من أهان الرسول ﷺ أبلغ إهانة ، بل وذهب إلى حد أن أوفد رسولاً مع بعض الجند ليأتيه بالنبي العربي حياً أو ميتاً ، ولكنه مات قبل إنجازه وعيده .

وما إن بدأ الأمر يستقر للرسول في شبه الجزيرة العربية ، حتى أخذت الدول الكبرى المجاورة ، تكيد للعرب وتحاول الإيقاع بهم ، حتى توقَّع المسلمون الغزو من جانب أعدائهم على ما جاء على لسان عمر نفسه في عهد الرسول ﷺ .

وإنه لما يسترعي الانتباه حقاً أن عمر بن الخطاب ، الذي تمَّت في عهده أكبر المعارك حسماً في تاريخ الأمة الإسلامية ، لم يكن ممن تستهويه الحرب ، وكان لا يقدم على معركة من المعارك إلا مُكرهاً . وكان يفكر طويلاً قبل أن يأذن لقواده المتعطِّشين إلى الجهاد بالإقدام على مغامرات جديدة . وقد كان موقفه من قتال المرتدِّين نُصْحَه لأبي بكر بمسالمتهم ، حتى أخرج أبا بكر عن هدوئه ودفعه إلى الإمساك بلحيته ، وإلى أن يوجه إليه تأنيبه المشهور :

« اجبار في الجاهلية وخوار في الإسلام ؟! » .

ومما قاله عمر غداة الانتصار الأول للمسلمين على الفرس :
« ولو أن بيننا وبين فارس جبلاً من نار لا يصلون إلينا ولا نصل إليهم » .

ثم إن عمر بن الخطاب لم يأذن لعمر بن العاص بغزو مصر إلا بعد تردد طويل ، وبعد أن ثبت لديه أن قائد الروم قد فرّ من الشام إلى مصر ليحشد فيها الجيوش ، ويتأهب للكرّ على الشام . وبعد أن أصدر أمره إلى عمرو بن العاص في هذا الخصوص كاد يسترجعه ، على أن الخليفة نهاه عن الإيغال في المغرب بعد فتحها خوفاً منه على المسلمين .

وقد سبق لعمر أن قال : « إن رجلاً من المسلمين أحب إليّ من مائة ألف دينار » .

أهم الفتوحات في عهد عمر

أ - فتوح بلاد الشام والجزيرة :
يُستفاد من روايات الطبري أن الجيوش الإسلامية توزّعت ، بعد وقعة اليرموك ، كل في الناحية التي عيّنها له أبو بكر ، فاتجه عمرو بن العاص بجيشه نحو فلسطين ، وشرحبيل بن حسنة نحو

الأردن ، وأبو عبيدة بن الجراح ومعه خالد بن الوليد ويزيد بن أبي
سفيان نحو دمشق ، وما بعدها شمالاً .

ومن أولى المدن التي اتَّجَهِت إليها الجيوش الإسلامية
دمشق ؛ فقد زحف عليها المسلمون بقيادة أبي عبيدة وخالد ، فنزل
أبو عبيدة على باب العجابية ، ونزل خالد على الباب الشرقي ، وضربا
الحصار الشديد على المدينة مدة سبعين ليلة .

أرسل والي دمشق يستنجد الإمبراطور البيزنطي هرقل ، الذي
يُروى أنه كان في حمص ، فأرسل هذا الأخير مدداً ، لم تصل إلى
دمشق ؛ فقد كان قسم من الجيش الإسلامي بقيادة ذي الكلاع مرابطاً
في الطريق ، بين حمص ودمشق ، تحسباً لمجيء مدد من حمص
إلى دمشق ، مما أدخل الفشل والوهن على أهلها .

وقد اغتتم خالد فرصة انشغال حراس المدينة ، فاصطنع حبلاً
كهيفة السلالم ، وصعد السور مع جماعة من رجاله ، وانحدروا إلى
الباب ، وقتلوا البوابين وفتحوه ، ثم دخل الجيش عنوة ، وأخذ يعمل
القتل فيمن صادفه ، مما أجبر حماة الأبواب الأخرى على تسليم
أنفسهم لأبي عبيدة ، فقبل منهم ذلك ، وأرسل الخبر لخالد بذلك
فكفَّ عن الحرب .

وتمَّ الصلح على جميع المدينة ، وعلى أساس مقاسمة أهلها

أموالهم ومساكنهم مع جزية سنوية مقدارها دينار وجريب طعام ، على كل رأس .

ومن الوقائع التي ذكر الطبري وقوعها في السنة الرابعة عشرة للهجرة وقعة « فحل » في ناحية الأردن ، وكانت بعد وقعة اليرموك ، حيث سار إليها يزيد بن أبي سفيان ، وكانت معصم من معاصم الروم الهامة ، وكان فيها ثمانون ألفاً . ولما أقبل الجيش الإسلامي نحوها أجرى الروم المياه ، حتى أوحلت الأرض من حولها .

غير أن المسلمين تمكّنوا من التغلب على هذه العوائق ، واشتبكوا مع الروم في قتال شديد ، كتبت الهزيمة فيه على هؤلاء ، وظفر المسلمون أحسن ظفر .

أعلن أهل « فحل » وقوفهم على الحياد من القتال الجاري بين المسلمين والروم ، وكتبوا إلى المسلمين يقولون لهم : « أنتم أحب إلينا من الروم ، وإن كانوا على ديننا . أنتم أوفى وأرأف بنا ، وأكفّ عن ظلمنا وأحسن ولاية علينا » ، على ما ذكره أرنولد توماس نقلاً عن مصادر قديمة .

ثم كانت وقعة بيسان حيث زحف عليها شرحبيل بن حسنة ، فحاصرها المسلمون ، وضيقوا على حاميتها ، واضطروها إلى الخروج ، واشتبكوا معها وانتصروا عليها . حينئذ طلب أهلها الصلح فصولحوا على صلح دمشق .

ولم تلبث بقية نواحي الأردن ومدنها أن جنحت إلى الصلح ،
ودخلت تحت سلطان المسلمين .

واتجهت بعد ذلك كتيبة نحو طبريا بقيادة أبي الأعور ، فسارع
أهلها إلى طلب الصلح ، فصولحوا على صلح دمشق أيضاً . كذلك
فُتحت في الناحية الشمالية من فلسطين كل من صفورية وعكا
وصور .

واتجه معاوية بن أبي سفيان ، بأمر من الخليفة ، وكان في جند
أخيه ، على رأس كتيبة نحو قيسارية ، فحاصرها ، ثم كُتب النصر
فيها للمسلمين .

ثم سار عمرو بن العاص ومعه شرحبيل بن حسنة إلى
أجنادين^(١) وكان فيها قائد شهير اسمه أرطبون ، وفيها حصون وخنادق
وحامية كثيفة من الروم . فضرب المسلمون عليها الحصار مدة
طويلة . ثم جرى بين الطرفين قتال عنيف كقتال اليرموك ، كان النصر
فيه للمسلمين ، فكان فتحاً عظيماً لأنه مهّد لفتح بيت المقدس .

ثم سار عمرو نحو بيت المقدس ، في السنة الخامسة أو السادسة
عشرة ، حسب الروايات التي اختلفت حول كيفية فتحها . ولعلّ
أصح الروايات ، في هذا الشأن ، أن عُمراً زحف بعد أجنادين على

(١) يعتقد أن مكانها اليوم في موقع وسط بين الرمل والخليل والقدس .

بيت المقدس ، وكانت تدعى « إيلياء » ، فضرِب عليها الحصار .
وجاء أبو عبيدة وشَهَرَ حصارها أيضاً . فضاق أهل البلد من الحصار ،
ويش الروم من مدد يأتِيهم لدفع المسلمين عنها ، فطلب بِطَرِيقِهَا ،
باسم السكان ، الأمان والصلح على أن يكون متولِّي ذلك الخليفة
نفسه . وجاء عمر حسب طلبهم إلى المدينة ، وصالحهم ، وكتب
لهم كتاب عهد وأمان^(١) .

وبعد بيت المقدس ، دخلت اللدّ ، والرَّملة ، وسائر أنحاء
فلسطين الجنوبية ، في صلح مع المسلمين في نفس الوقت الذي
دخلت فيه إيلياء الصلح .

وقد ذكر البلاذري أن عمر أمر معاوية بن أبي سفيان بِتَبْع ما
بقي من فلسطين ، ففتح عسقلان صلحاً ، بعد كيد ، كما فتحت
غزة ، ونابلس ، ويافا ورفح ، وغيرها .

وفي حين كانت حركة الفتح في فلسطين تسير بشكلها
الناجح ، كانت هذه الحركة في شمال سوريا قد أخذت تسير في
الإتجاه نفسه ؛ فقد زحف الجيش الإسلامي بقيادة أبي عبيدة وخالد
نحو حمص ، عن طريق بعلبك ، فخرج إليهم أهلها ، وطلبوا
الصلح ، فأجيبوا إليه ، وكتب لهم كتاب أمان ، هذا نصه :

(١) راجع ما ورد في الصفحتين : ٩٠ - ٩١ .

« بسم الله الرحمن الرحيم :

هذا كتاب أمان لأهل بعلبك ، رومها ، وفرسها ، وعربها ،
على أنفسهم ، وأموالهم ، وكنائسهم ، ودورهم ، داخل المدينة
وخارجها ...

ومن أسلم منهم فله ما لنا ، وعليه ما علينا ، وتجارهم أن
يسافروا إلى حيث أرادوا من البلاد التي صالحنا عليها . وعلى من
أقام منهم الجزية والخراج ، شهد الله ، وكفى به شهيداً » .

ثم زحف الجيش الإسلامي نحو حمص ، وحاصرها حصاراً
شديداً إلى أن طلب أهلها الصلح ، فأجبيوا إلى طلبهم أيضاً .
وكذلك سقطت كل من حماه وقنسرين في أيدي المسلمين .

ثم اشتبكت القوات الإسلامية مع الروم الذين كان معهم كثير
من نصارى العرب ، الذين كانوا يقطنون جزيرة الفرات ، فكتب
النصر للمسلمين ، وتمكن عبادة بن الصامت الأنصاري من فتح
اللاذقية ، بعد حصار شديد . كما فتحت على يديه طرطوس ،
وجبله .

ثم تتابع سقوط المدن الحصينة في أيدي المسلمين ، فسقطت
أنطاكية ، وتمكن يزيد بن أبي سفيان من فتح بيروت ، وصيدا ،
وجبيل ، وعرقه . ولم يبق بدون فتح شامل من بلاد الشام إلا
جزيرة الفرات . فأرسل إليها سعد بن أبي وقاص ، عياض بن غنم ،

وتمكن بجهدٍ يسير من إرغام الرها ، وحرّان ، ونصيبين ، ورأس العين ، والرقّة ، ثم نصارى تغلب ، وغيرهم ، على طلب الصلح ، وقد علّق الطبري على فتح الجزيرة بقوله : إنها كانت أسهل البلدان أمراً ، وأيسرها فتحاً .

ب - فتوح مصر والنوبة وبرقة وطرابلس :

بعد أن استتبّ الأمر في فلسطين وسائر الديار الشامية للسيادة العربية الإسلامية ، زحف عمرو بن العاص من فلسطين نحو مصر .

ويُروى أن عمراً بن العاص تحدّث مع الخليفة ، حينما قدم إلى الشام ، في شأن فتح مصر ، وأطنب له فيما هي عليه من صفات ، وما يمكن أن يكون للعرب بفتحها من سلطان ، وتمكين ، فوافقه على ذلك .

وتذكر الروايات أن الخليفة أمّد عمرو بن العاص بأربعة آلاف رجل بقيادة الزيد بن العوام ، والمقداد بن الأسود ، وعبادة بن الصامت ومسلمة بن مخلّد .

وهناك روايات تذكر أن عدد المدد كانت اثني عشر ألف رجل ، بقيادة الزبير بن العوام . وكان مع عمرو ، حينما زحف ، نحو أربعة آلاف رجل ، فيكون مجموع ما ذكرته الروايات من القوات الإسلامية التي قدمت إلى مصر ، لفتحها ، ما مجموعه ستة عشر ألفاً على أوسع تقدير .

بدأ زحف الجيش العربي على مصر في السنة السادسة عشرة
أو السابعة عشرة ، وقيل في السنة التاسعة عشرة .

وصل عمرو بن العاص إلى العريش دون أن يلقي أية مقاومة ،
واستولى عليها ، ثم تقدم إلى الفرما ، التي كانت تسمى « بلعوز »
والتي تُعدّ مفتاح مصر ، فحاصرها واستولى عليها أيضاً . ثم تقدّم
نحو بلبيس ، فوجد الروم قد تجمّعوا فيها بقيادة أرطبون ، قائد
أجنادين ، وتمكّن من هزيمتهم ، والإستيلاء على المدينة ، ثم تقدّم
نحو هيليوليس ، التي يسمّيها العرب « عين شمس »^(١) ،
فحاصرها ، وحاصر حصن باب ليون . ثم غزا منطقة الفيوم ،
واستولى عليها . ثم عاد إلى هيليوليس ، وتمكّن من احتلالها بعد
حصار شديد ، واتخذها مركزاً للقيادة .

ومما يُروى أن المقوقس ، حاكم مصر ، أرسل إلى عمرو
كتاباً ، مع وفد ، يطلب منه وفداً لسمع منه ما يريد ، فأرسل إليه
عمرو جواباً يقول فيه :

« ليس بيننا وبينكم إلا ثلاث خصال : الدخول في الإسلام ،
فتكونون أخواننا ، لكم ما لنا وعليكم ما علينا ، أو أداء الجزية ، أو
القتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم ! » .

(١) تدعى اليوم مصر الجديدة .

وسأل المقوقس الوفد عن العرب ، فقالوا :

« رأينا قوماً الموت أحب إليهم من الرفعة ، وليس لأحدٍ في الدنيا رغبة ولا نهمة . وجلسهم على الأرض ، وأكلهم على ركبهم ، وأميرهم كواحدٍ منهم ، ما يُعرف رفيعهم من وضعهم ، ولا السيد فيهم من العبد . وإذا حَضَرَت الصلاة لم يتخلف منهم عنها أحد . يغسلون أطرافهم بالماء ، ويخشعون في صلاتهم » .

أرهب هذا القول السامعين من الأقباط ، وأشار المقوقس عليهم بالصلح فقبلوا ، وفاوضهم عبادة بن الصامت . وانتهى الأمر بموافقة المقوقس وزعماء الأقباط على أداء الجزية لقاء الأمان ، فكتب لهم عمرو كتاب أمان ، هذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم .

هذا ما أعرض عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم ، وملَّتْهم ، وأموالهم ، وكنائسهم ، وصلبهم ، وبرَّهم ، وبحرهم ؛ لا يدخل عليهم شيء ولا ينتقص ، ولا يساكنهم النوب . وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية ، إذا اجتمعوا على هذا الصلح على ما في هذا الكتاب عهد الله ، وذمته ، وذمة رسوله ﷺ ، وذمة الخليفة أمير المؤمنين ، وذمة المؤمنين » .

وفيما تمَّ التفاهم على الصلح وكتابة كتاب الأمان بين المقوقس وزعماء منطقة اليون ، وعين شمس ، والقائد العربي ، أصرَّ الروم

على الإستمرار في الحصن ، وعدم الإستسلام ، فما كان من المسلمين إلا أن شدّدوا الحصار عليهم .

وظلّ الأمر كذلك ، حتى جاء المسلمين خبر موت هرقل ، فشدّدوا هجماتهم ، واقتحموا الحصن ، واستولوا عليه ، وقتلوا عدداً كبيراً من أفراد الحامية ، واستسلم الناجون .

ثم زحف عمرو ، بعد ذلك ، نحو الإسكندرية عاصمة البلاد ، وضرب عليها الحصار الذي طال نحو سنة ونصف ، وبعد مناوشات واشتباكات متعدّدة ، طلب الروم عقد هدنة للإنسحاب ، وقبل عمر الطلب ، فانسحبوا ، واستولى العرب على المدينة العظمى .

وكان فتح الإسكندرية في السنة العشرين للهجرة ، وفي رواية أخرى في الحادية والعشرين .

وبعد أن استتبّ السلطان العربي على جميع أنحاء القطر المصري ، رأى عمرو أن يمدّه إلى الجنوب من ناحية ، وإلى الغرب من ناحية أخرى ، فسار ، في السنة الثانية والعشرين للهجرة ، على رأس جيش نحو المغرب ، فاحتلّ زويلة ، وبرقة ، ثم قاتل الروم في طرابلس وهزمهم واستولى على المدينة . ثم كتب إلى الخليفة يقول :

« إنا قد بلغنا طرابلس ، وبينها وبين إفريقيا تسعة أيام ، فإن

رأى أمير المؤمنين أن يأذن لنا في غزوها فعل ! » . فلم يأذن له عمر بذلك . والراجح أن الخليفة تحسّب من عواقب الانتشار والتغلغل قبل الإستعداد والتوطّد .

وقد كان فتح طرابلس تمهيداً للتدفق العربي الإسلامي نحو بقية أنحاء شمالي إفريقيا ، في خلافة عثمان ، وما بعده .

ثم سيّر عمرو ، بقيادة عقبة بن نافع الفهري ، خيلاً إلى أرض النوبة ، فلقى المسلمون من أهلها قتالاً شديداً ، ورشقوهم بالنبل ، وكانت إصاباتهم بعيونهم ، من ذلك ، كثيرة ، حتى سُميت الواقعة بـ « وقعة الحدق » .

ج - فتوح العراق وبلاد فارس :

استطاع خالد بن الوليد تحرير العراق من النفوذ الفارسي وبسط النفوذ العربي الإسلامي عليه ، ودخل معظم سكانه في صلح مع المسلمين . وقبل أن يغادر خالد إلى الشام ، بأمر من أبي بكر ، لنجدة المسلمين هناك ، استخلف على العراق المشنى بن حارثة الشيباني .

اغتنم الفرس فرصة سفر خالد ، وضعف الحامية الإسلامية المرابطة في العراق ، وحاولوا استرجاع ما كان لهم من سلطان ، وعيّنوا قائداً عليهم أحد زعمائهم ، ويدعى رستم .

وبعد وفاة أبي بكر وتولّي عمر ، أرسل هذا الأخير المدد إلى
المثنى ، بقيادة أبي عبيدة بن مسعود الثقفي ، الذي انتصر على
الفرس في عدد من المعارك . إلا أنه مُني بهزيمة مُفجعة ، في وقعة
الجسر ، بعد أن دفع الفرس نحو المسلمين ، الذين كادوا أن
يغلبوهم ، فيلاً من أفيالهم عبر الجسر الضيق الذي يفصل بينهما ،
فتصدّى له أبو عبيدة ، وضربه بالسيف ، فهاج الفيل ، وضرب أبا
عبيدة وسحقه ، فاضطرب المسلمون وأخذتهم سيوف الفرس من
خلفهم ، فتهافتوا في الفرات ، وقُتل وغرق منهم نحو أربعة آلاف .

ثم اشتبك المسلمون مع الفرس في « البويب » ، وانتصروا
عليهم ، إلا أن الفرس جمعوا أمرهم ، وملّكوا عليهم يزدجرد
كسرى ، فأخذ يحشد الحشود ، ويوجّهها بالإنسحاب إلى ماء ذي
قار .

ثم عزم الخليفة على أن يسير بنفسه إلى الجبهة ، واستشار
أصحاب رسول الله ﷺ فأشاروا عليه ، بغير ذلك . ونصحوه بتولية
سعد بن أبي وقاص لهذه المهمة .

خرج سعد على رأس أربعة آلاف مقاتل ، ثم أمده الخليفة
بالجند حتى بلغ عدد من تجمّع تحت قيادته ثلاثين ألف رجل .

أرسل سعد إلى يزدجرد وفداً برئاسة النعمان بن مقرن ، فدعاه

وقومه إلى الإسلام ، أو دفع الجزية ، أو القتال ، وكان ردُّ يزدجرد على النعمان قاسياً .

كما أرسل سعد وفداً برئاسة المغيرة بن شعبة إلى رستم ، قائد جيش الفرس ، للغرض ذاته ، ولم يكن ردُّ رستم بأهون من رد ملكه .

وبعد فشل المفاوضات احتكم الفريقان إلى القتال ، فأظهرت القوات الإسلامية تفوقاً ملحوظاً ، مما أجبر الفرس على الانسحاب نحو القادسية ، حيث خيم رستم مع جيوشه . وكانت القادسية بمثابة باب العراق الشمالي أو العجمي .

ثم بدأ المسلمون بالإشتباك مع الفرس في القادسية ، واستمرت المعركة ثلاثة أيام انتهت بهزيمة منكرة للفرس ، بعد أن قُتل منهم مقتلٌ عظيم ، وكان من بين القتلى القائد رستم نفسه . واستولى العرب على ما لا يكاد يحصى من مال ، وسلاح ، وموئن ، ودواب ، كما استولوا على راية الفرس المقدسة . وكانت هذه الواقعة في السنة الخامسة عشرة للهجرة .

بعد وقعة القادسية ، غدت الطريق مفتوحة إلى عاصمة الفرس (المدائن) ، التي تقدّم المسلمون نحوها ، ووقفت في طريقهم قلعة بهريس التي كانت بمثابة حصن أمامي للعاصمة ، على الجانب الغربي من دجلة ، فحاصروها شهراً ، ثم استولوا عليها .

ثم استطاع المسلمون بقيادة أحد أبطالهم ، ويدعى عاصم بن
عمرة ، ومعه ستمائة مقاتل ، من عبور نهر دجلة ، على الخيل ،
وأقاموا رأس جسر على الضفة الثانية .

ثم تقدّم سعد وجنوده ، فاقتحموا النهر ، وكان عبورهم مفاجأة
لأهل المدائن ، فذعروا أشد ذعر . وهرب الملك ، ودخل المسلمون
المدينة بدون مقاومة تُذكر ، واحتلوا على كميات كبيرة من الذخائر ،
والكنوز ، والأموال ، والمتاع .

إلا أن الفرس أعادوا تجمعهم في مدينة جلولاء ، التي
حصّنها ، وخندقوا حولها . وتقدّم سعد نحوها ، واشتبك الجيشان
اشتباكاً شاملاً كانت نتيجته هزيمة قاسية للفرس ، ذكرت الروايات أن
عدد قتلاهم بلغ مائة ألف قتيل ، واستولى المسلمون على غنائم
عظيمة .

أرسل سعد إلى الخليفة عمر خمس غنائم الحرب من وقائع
القادسية ، والمدائن ، وجلولاء ، وأرسل إليه ما عثر عليه من تاج
كسرى ، وسيفه ، وثيابه الثمينة ، فلم يتمالك الخليفة من البكاء
شكراً لله على عظيم ما أنعم به على المسلمين ، وخطب بالناس قائلاً
لهم : « لقد جاءنا مال كثير؛ فإن أردتم عَدَدُنا لكم عدداً ، وإن أردتم
كلنا لكم كيلاً » . وقد تمكنت القوات الإسلامية ، بعد جلولاء ، من
تصفية المنطقة وإخضاعها للسيادة العربية .

وبعد استراحة قصيرة ، استأنف المسلمون نشاطهم وحركتهم داخل بلاد فارس . وعُيِّن النعمان بن مقرن المزني قائداً لحملة لمواجهة فلول الفرس في عقر دارهم ، فاشتبك معهم واستشهد ، فاستلم القيادة حذيفة بن اليمان الذي استطاع قيادة المسلمين إلى النصر الكبير .

واستولى المسلمون على همذان ، ومرو ، وقد سمي فتحهم فيها بفتح الفتوح لكثرة خسائر العدو . ثم تقدموا في بلاد فارس ، واستولوا عليها .

وبعد إتمام فتح العراق وفارس ، اتجهت الفتوح الإسلامية إلى بلاد الترك .

الفصل الخامس

عمر وتنظيم الدولة

بالرغم من أن النشاط الحربي قد استغرق معظم فترة خلافة عمر ، فإنه لم يضمن بالجهود اللازمة لتنظيم الدولة من الناحية الإدارية والعناية بمرافقها العمرانية . وكان الخليفة عمر المؤسس لمعظم النظم الإدارية والمشروعات العمرانية التي عرفتھا الدولة الإسلامية فيما بعد ، ويكفيه أنه أول من دوّن الدواوين ، وقسم الدولة إلى ولايات وأنشأ المدن خارج شبه الجزيرة العربية ، وأقام المشروعات العمرانية المختلفة .

إنشاء الدواوين

الديوان كلمة فارسية معناها « السجل » ، أو « الدفتر » ، وقد أطلق اسم الديوان في باب المجاز على المكان الذي يُحفظ به الديوان .

والمعلوم أن أول من وضع الديوان في الإسلام هو عمر بن الخطاب ، وذلك بعد أن غنم المسلمون كنوز فارس والروم .

أما قبل عمر ، فلم تعرف الدولة الإسلامية شيئاً من هذه الدواوين ؛ فلم يكن للرسول بيت مال ، لأنه كان يوزع الفيء والصدقات بمجرد قبضها . وجرى الخليفة الأول على نهج الرسول ، فرفض إتخاذ بيت مال ، فلما كثر الفيء ، أيام عمر ، بصورة غير مألوفة ، أشار عليه أصحابه باتخاذ الديوان .

ويختلف الرواة في تاريخ إنشاء الديوان ، فالطبري يذهب إلى أنه أنشئ في السنة الخامسة عشرة للهجرة ، ويقول ابن سعد : إنه في المحرم سنة عشرين ، ولعل التاريخ الأخير هو الأقرب إلى الواقع ، لأنه يوافق الفتوحات الكبرى التي أدت إلى تدفق الأموال إلى المدينة بصورة غير مألوفة .

ويُروى أن عمر إنما دوّن الديوان ، وفرض العطاء ، ليفرغ المسلمون للجهاد في سبيل الله ، ولكي يصبح ميدان الدعوة إلى دين الله حراً طليقاً ، لا يتحكم فيه الروم والفرس أو غيرهما .

ولهذا السبب حُرّم ، في عهده ، قسمة الأرض في البلاد المفتوحة على الجند ، حتى لا يُشغَلوا بالزراعة عن الجهاد ، وحتى لا تجذبهم الأرض إليها ، فتنسيهم الرسالة الكبرى .

وكان في المدينة سجل للمسلمين الذين يستحقون العطاء من بيت المال ، وكان عمر يحرص على أن يصل إلى كل ذي حق حقه .

وقد رُوي أنه كان يحمل « سجل » كل قبيلة من القبائل ، ويذهب إليها بنفسه في موطنها .

ولم يكن من الميسور أن تكون سجلات المسلمين كلها في المدينة ، لذلك أنشئت سجلات على غرار سجل المدينة في العواصم الأخرى ؛ فكان هناك ديوان عند والي اليمن ، وآخر في البصرة يحفظه أمير كل إقليم . وأصبح كل والٍ مسؤولاً عن إيصال العطاء إلى أصحابه في ولايته ، كما كان عمر يُوصل العطاء لأصحابه في المدينة وما حولها .

وقد ذكر أن الخليفة عمر ، سأل أصحاب رسول الله ﷺ :
« بمن أبدأ ؟ » .

قالوا : « بنفسك ! » .

فقال : « لا ، ولكنني أضع نفسي حيث وضعها الله ، وأبدأ بآل الرسول ﷺ » .

ثم أمر بترتيب ديوان المدينة ، مبتدئاً بأزواج النبي ﷺ ، ثم أقاربه ، ثم الأفضل فالأفضل في السبق إلى الإسلام ، والهجرة ، والجهاد .

ومما رُوي في هذا المجال ، أن عبد الله بن عمر ، احتجَّ على إنقاص عطائه عن عطاء أسامة بن زيد ، حيث فرض له أقل مما فرض

لأسامة ، وقال : « شهدت ما لم يشهده من الوقائع » .

فقال له أبوه : « إني زدته عنك لأنه كان أحبُّ إلى رسول الله ﷺ منك ، ولأن أباه كان أحبُّ إلى رسول الله ﷺ من أبيك ! » .

ولم يكن ديوان العطاء هو الديوان الوحيد الذي أنشأه عمر ، بل أُضيف إليه « ديوان الإنشاء » لحفظ الوثائق الصحية .

ويلاحظ أنه لم يكن ثمة ديوان للإنشاء قبل أن يُنشئه عمر ؛ فقد كان الرسول ﷺ يكتب إلى عمّاله ، وإلى رؤساء الدول الأخرى في بعض المناسبات ، وكانت هذه الكتب والردود عليها تُحفظ عنده في المدينة ، وصنع الصديق صنيعة .

أما في عهد عمر ، فقد كُثرت الكتب لدرجة غير مألوفة ، فأنشئ الديوان الخاص بها في المدينة ، وفي غيرها من العواصم . وكانت دواوين الشام تكتب بالرومية ، ودواوين العراق تستعمل الفارسية ، ودواوين مصر تعتمد اللغة القبطية . ولم يكن العاملون في هذه الدواوين من العرب ، بل كانوا من أهل البلاد المفتوحة ، من الروم ، أو الفرس ، أو القبط .

أما ديوان الجند فقد هدف ترتيبه إلى إقامة جيش متفرغ للجهاد والدفاع كلما دعا الداعي إليها .

وقد أثر عن عمر أنه كان يأمر بعدم اشتغال المجاهدين

بالزراعة ، والتكسب ، حتى يكونوا على استعداد دائم لتلبية واجب الجهاد . مع الملاحظة أن كثيراً من الفئات التي دخلت في الديوان لم تكن محاربة ، أو بعبارة أخرى لم تكن في حالة القادر على ممارسة الحرب ، مثل نساء النبي ﷺ ، وكبار أصحاب رسول الله ﷺ من السابقين الأولين ، من المهاجرين والأنصار ، إضافة إلى العديد ممن اشتركوا في وقائع الفتح الكبرى ، وأقاموا في الأمصار ، فكتبت أسماؤهم في الدواوين .

ولعل ذلك كله يدل على أن الترتيب المُعتمد استهدف أمراً عظيماً آخر ، هو مساعدة وترفيه أصحاب السابقة في الإسلام والجهاد ، ممن أقعدتهم ظروفهم وأعمارهم عن متابعة الجهاد .

ويعتبر بعض الباحثين أن عمر ، يصح أن يسمى مؤسساً لديوان « الوقف الخيري » ، فقد أنشأ بيت الدقيق لإغاثة الجياع الذين لا يجدون الطعام ، وأصاب قبل خلافته أرضاً بخير ، فاستشار الرسول ﷺ فيها ، فاستحسن له أن يحبس أصلها ، ويتصرف بريعتها ، فجعلها عمر صدقة ، لا تُباع ولا تُوهب ، ولا تُوزن ، يُنفق منها على الفقراء والغزاة وغيرهم . ولا جناح على من وليها أن يأكل بالمعروف ، ويُطعم صديقاً فقيراً منها .

ولم يكتفِ عمر بإنشاء هذه الدواوين فحسب ، بل أنشأ البريد ، وبيت المال ، ومرابط الثغور ، ومُصنع السكة لضرب

النقود ، ودار الحبس للعقاب .

هذه الدواوين التي كانت نواة الوزارات الإسلامية ، والتي أرسى عمر قواعدها ، كانت البذرة التي تفرّعت منها الدواوين الأخرى ، وتنوّعت في العهدين الأموي والعباسي .

التقسيمات الإدارية

كما اضطر الخليفة عمر إلى إنشاء الدواوين في العاصمة والأقاليم ، اضطرته مقتضيات اتساع رقعة الدولة الإسلامية وحسن الإدارة إلى تقسيم البلاد إلى « ولايات » ، أو « إمارات » ، على رأس كل منها « والٍ » أو « أمير » ، يكون ممثلاً للخليفة فيها ، يؤدي وظائفه المدنية والدينية .

كما أن عمر سمح بإنشاء مدنٍ عربية تكون قواعد للحكام ، وتحافظ على عروبة الجند ، وتحول دون اندماجهم في السكان الأصليين ، حتى لا يفقدوا خصائصهم الذاتية ، من تقشف ، وزهد ، واستعداد للبذل ، والفداء في سبيل الله ، وهي الصفات التي مكّنتهم من اكتساح جنود كسرى وقيصر .

وقد جاءت التقسيمات الإدارية زمن الخليفة عمر كما يلي :

ولاية الأهواز والبحرين ، وولاية سجستان ، ومكران وكرامان ، وولاية طبرستان ، وولاية خراسان . وجعل بلاد فارس

ثلاث ولايات : بلاد العراق ، وقسمها إلى قسمين ، أحدهما
حاضرتة الكوفة ، والآخر حاضرتة البصرة ، وقسم بلاد الشام إلى
قسمين : أحدهما قاعدته حمص ، والثاني دمشق . وجعل فلسطين
قسماً قائماً بذاته ، وقسم إفريقيا إلى ثلاث ولايات : مصر العليا ،
ومصر السفلى ، وغرب مصر وصحراء ليبيا .

وكان على كل إقليم من هذه الأقاليم عامل ، (أو وَّالٍ أو أمير)
يقوم بإمامة الناس في الصلاة ، ويفصل في الخصومات ، ويقود
الجنود في الحرب ، ويجمع المال . . . ثم أقيم إلى جانب الوالي
عامل للخراج ، مما أدى إلى قيام المنازعات بين الولاة وعمال
الخراج ، وجرى التقليد على أن يكون الولاة من العرب .

ولمَّا كان العامل في الولاية ممثلاً للخليفة ، لذلك كان عمر
دقيقاً في تحريره لمن سوف يعينه لهذا المنصب . فلم يُعَيَّن إلا من
وثق به : في دينه ، وعقله ، وسلوكه .

وكان عمر ، إذا ما بدرت من أحد عماله أو ولاته بادرة تناقض
شيئاً من هذه الاعتبارات ، أو رُفعت إليه شكاوى أثارت الشكوك في
نفسه ، يسارع إلى عزله ، مهما كانت شخصيته وبلاؤه
وسابقته ، ولو لم يصل ما بلغه إلى الإتهام الصريح بخيانة أو تقصير ،
حرصاً منه على أن يكون عماله فوق كل الشبهات عنده وعند الناس .

وكان من عادته أن يأخذ عماله بموافاته الحج كل سنة للسياسة

والمشاورة والإستطلاع ، ثم لحجزهم عن الرعية ، وترك المجال حراً
لشاكٍ يرفع شكواه فيهم .

ولم يكتفِ عمر بذلك ، بل كان يسأل بنفسه الوفود عن
عماله ، ويستقصي أخبارهم ، ومما كان يسأل الناس :

« هل يعود أميركم مرضاكم ؟ وهل يعود العبيد ؟ وكيف صنيعه
بالضعيف ؟ وهل يجلس على بابهِ ؟ » .

وعينَ عمر مفتشين يطوفون البلاد ، ويستطلعون حالة الرعية
والعمال ، ويتحرّون حالة عمّاله المادية فيحاسبونهم ، ويصادرون ما
يشتهون منه من أموال في حوزتهم ، ويقاسمونهم إياه إذا لم يكن
حراماً ، كما كان الخليفة يباشر هذا الأمر بنفسه أحياناً .

وقد كتب عمر بهذا الخصوص إلى عامله على مصر عمرو بن
العاص يقول : « إنه قد فشت لك من متاع ، ورقيق ، وآنية ،
وحیوان ، لم يكن حين وُلِّيتَ مصر ! » .

فكتب إليه عمرو : « إن أرضنا أرض مزدرعٍ ومتجرٍ ، فنحن
نُصيب فضلاً عما نحتاج إليه لمنفعتنا » .

فكتب إليه عمر : « إني قد خَبِرْتُ من عمّال السوء ما كفى ،
وكتابتُ إليّ كتاب مَنْ قد أقلقه الأخذ بالحق ، ولقد سوءتُ بك
ظناً ، وقد وجَّهت إليك محمد بن مسلمة ليقاسمك مالك ، فاطْلِعْهُ

طلعة ، واخرج إليه ما يطالبك به ، وأعفِه من الغلظة عليك ، فإنه
برح الخفاء ! » .

ثم حضر محمد إلى مصر وقاسم عمرو ماله .

إنشاء المدن والعواصم

تحوّلت شبه الجزيرة العربية ، أيام عمر ، إلى معسكر كبير
للأمة العربية والإسلامية ، لأداء الرسالة الإلهية التي اختارها الله
لها ، وساعد على ذلك حياة الخشونة التي اعتادها العرب ، منذ
القدم ، بالنظر إلى جَدْب طبيعة شبه الجزيرة العربية وقسوتها .

ولمّا فتح الله على المسلمين العراق ، والشام ، ومصر . وجد
عمر نفسه أمام مشكلة مُلِحَّة ، وهي كيف يحافظ على خصائص
الجنوب العربي أطول مدة ممكنة إزاء الإغراءات الجديدة ؟ وانتهى
به تفكيره إلى أن يرفض رفضاً مطلقاً اندماج العرب في الشعوب
المفتوحة . ومن هنا كان رفضه لمبدأ تقسيم الأرض وتوزيعها على
الفاحين ، وفرض عطاء لكل مسلمٍ من بيت المال ، حتى يفرغهم
تماماً للرسالة الكبرى التي حملوا بها .

إلا أن عمر أدرك ، من ناحية أخرى ، حاجة الأمة الإسلامية
إلى نوع من المعسكرات الدائمة في أطراف الدولة الناشئة ، تكون
الحياة فيها ميسرة للجندي العربي ، دون أن تفقده مقدمات

الجنديّة . وانتهى به الأمر إلى السماح بإنشاء مُدن عربيّة مُتميّزة ،
ظلت مزدهرة على مرّ القرون ، وأشهرها على الإطلاق : البصرة ،
والكوفة في العراق ، والفسطاط في مصر .

قصة إنشاء البصرة :

أول ما نزل بموضع البصرة هو القائد عتبة بن غزوان ، وقد
كتب إلى الخليفة عمر يُعلمه بنزوله إياها ، ويخبره بأنه لا بدّ
للمسلمين من منزل يشتون به ، إذا شتوا ، ويسترون فيه إذا انصرفوا
من غزوهم . فردّ عليه الخليفة أن « اجمّع أصحابك في موضع
واحد ، وليكن قريباً من الماء والمرعى ! » وطلب إليه - كما هي عادة
عمر - أن يكتب إليه بصفة الموقع . فكتب القائد إلى عمر :

« أني وجدت أرضاً كثيرة القصب ، في طرف البر ، إلى
الريف ، ودونها منافع ماء » .

وافق الخليفة على اختيار الموقع ، فنزل بها المسلمون ، وبنوا
مساكنهم بالقصب ، وكذلك المسجد ، وذلك سنة أربع عشرة
للهجرة ؛ فكانوا إذا غزوا نزعوا القصب ، وحزموه ، ووضعوه حتى
يرجعوا من الغزو ، فإذا رجعوا أعادوا بناءه .

فلم تزل الحال كذلك ، حتى أمر عمر أبا موسى الأشعري
بالخروج إلى المكان ، وأن يصرف الخطط لمن هناك من العرب ،

ويجعل لكل قبيلة محلّة ، وأن يأمر الناس بالبناء ، وأن يبني لهم مسجداً جامعاً .

قصة إنشاء الكوفة :

لَمَّا فَتَحَ الْعَرَبُ جُلُولَاءَ وَتَكَرَّيْتُ ، وَقَدِمْتُ وَفُودَهَا عَلَى عَمْرِ
بِالْمَدِينَةِ ، رَأَاهُمْ مُتَغَيِّرِينَ قَدْ أَصْفَرَّتْ وَجُوهُهُمْ ، وَتَحَلَّتْ أَجْسَادُهُمْ ،
فَقَالَ لَهُمْ عَمْرٌ : « وَاللَّهِ ، مَا هَيْئَتُكُمْ بِالْهَيْئَةِ الَّتِي خَرَجْتُمْ بِهَا ، وَلَقَدْ
قَدِمْتُ وَفُودَ الْقَادِسِيَّةِ ، فَمَا كَانُوا مِثْلَكُمْ ، فَمَا الَّذِي غَيَّرَكُمْ ؟ » .

قَالُوا : « وَخُومَةُ الْبِلَادِ وَرَطُوبَتُهَا » .

فَكَتَبَ الْخَلِيفَةُ إِلَى سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ يَقُولُ : « أَنْبِئْنِي مَا
الَّذِي غَيَّرَ أَلْوَانَ الْعَرَبِ وَلَحُومَهُمْ ؟ » .

فَكَتَبَ إِلَيْهِ الْقَائِدُ : « إِنَّ الْعَرَبَ خَدَّدَهُمْ ، وَغَيَّرَ أَلْوَانَهُمْ ،
وَخُومَةُ الْمَدَائِنِ وَدَجَلَةٌ » .

فَكَتَبَ إِلَيْهِ الْخَلِيفَةُ :

« إِنَّ الْعَرَبَ لَا يُوَافِقُهَا إِلَّا مَا وَافَقَ إِبِلَهَا مِنَ الْبِلْدَانِ ، فَابْعَثْ
سَلْمَانَ رَائِداً وَحَذِيفَةَ (وَكَانَا رَائِدِي الْجَيْشِ) ، فَلْيُرْتَادَا مَنْزَلاً بَرِيّاً
بَحْرِيّاً ، لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ فِيهِ بَحْرٌ ، وَلَا جَسْرٌ ! » .

فَبَعَثَ سَعْدٌ حَذِيفَةَ وَسَلْمَانَ . فَخَرَجَ سَلْمَانُ حَتَّى الْأَنْبَارِ ،

فسار في غربي الفرات ، لا يرضى شيئاً حتى أتى الكوفة^(١) ، وخرج
حذيفة ، فسار في شرقي النهر ، لا يرضى شيئاً حتى أتى الكوفة ،
فأعجبتهما البقعة ، فنزلا وصلّيا ، وكتبوا إلى سعد بالخبر ، فجمع
قواده ، وارتحل بالناس من المدائن عاصمة الفرس القديمة ، حتى
عسكر في الكوفة سنة ١٧ هـ ، وكتب إلى عمر :

« إني قد نزلت بكوفة منزلاً ، بين الحيرة والفرات ، برياً بحرياً
ينبت الحلّى والنصى (نوع من النباتات) . وخيَّرت المسلمين
بالمدائن ، فمن أعجبه المقام فيها تركته فيها كالمسلحة ، فبقي فيها
أقوام أكثرهم بنو عبس . »

لم يقتنع عمر بتحديد مواصفات المكان ، فطلب من سعد أن
يأمر كبير مهندسي الجيش أن يخطّط لهم المدينة ، ووضع له القواعد
التي يتعيّن عليه اتّباعها ، بأن يجعل عرض شوارعها الرئيسية أربعين
ذراعاً ، وما يليها ثلاثين ، والصغيرة منها عشرين . وأن يجعل فيها
أزقة ؛ الزقاق سبعة أذرع « ليس دون ذلك شيء ! » .

وقد بنيت المدينة أولاً بالقصب على النحو الذي بنيت عليه
البصرة ، فلمّا شبّ فيها حريق ، أذن الخليفة باستعمال اللّبن في
البناء .

(١) كل حصباء ورمل مختلطين هو في اللغة « كوفة » .

ج - قصة إنشاء الفسطاط :

لما رأى عمرو بن العاص أن يتخذ عاصمة للحكم في مصر ، استأذن الخليفة في أن تكون هي الإسكندرية ، العاصمة القديمة .

فسأله عمر : « هل يحول بيني وبينكم ماء ؟ » .

أجاب عمرو : « نعم ، إذا جرى النيل » .

فكتب إليه الخليفة يقول : « لا أحب أن تنزل المسلمين منزلاً يحول الماء بيني وبينهم ، في شتاء ولا صيف » .

فاختار عمرو الفسطاط ، عاصمة للحكم ، لأنها تحقق رغبة أمير المؤمنين . ثم بنى عمرو مسجداً بالفسطاط واتخذ فيه منبراً يخطب في الناس من فوقه . فلما بلغ ذلك الخليفة عمر ، كتب إليه يقول : « بلغني أنك اتخذت منبراً ترقى به على رقاب المسلمين ، أما حسبك أن تقوم قائماً ، والمسلمون تحت عقبك ؟ ! » . وطلب إليه أن يسارع إلى كسر المنبر ، فنفذ عمرو إرادة الخليفة .

ثم أن عمرأ بنى لعمر بن الخطاب ، منزلاً بجوار المسجد الجامع ، فأجابه عمر : « أنى لرجل مثلي من الحجاز أن تكون له دار في مصر ؟ » ، وأمره أن يجعلها سوقاً للمسلمين .

القيام بالمشروعات العامة

كانت الأموال الكثيرة التي تدفقت على الجزيرة العربية تسمح لعمر - لو شاء - أن ينفذ من المشروعات العمرانية ما من شأنه أن يحول الجزيرة العربية ، أو بعض أجزاءها ، إلى جنة فيحاء .

ولا شك أن عمر قد سمع عن سد مأرب الذي جاء ذكره في القرآن الكريم ، ولكنه لم يفعل شيئاً من ذلك ؛ فمشروعاته في الجزيرة كانت كلها ذات طابع ديني ، وأشهرها توسيع المسجد النبوي وفرشه بالحصى ، وتوسيع الحرم المكي ، ونقل مقام إبراهيم (ع) من مكانه ، وكسوة الكعبة بالقباطي ، وهي ثياب بيض رفاق تُصنع في مصر ، وإضاءة المساجد في الليل وتوفير الماء للمسافرين بين مكة والمدينة .

ولعلّ عمر كان يخشى الإقدام على تنفيذ المشاريع على نطاق واسع مخافة أن يرتبط العربي بالأرض ، فلا يخفّ عندها إلى نداء الجهاد في سبيل الله ، في حين أن كثرة خيرات البلاد المفتوحة ، وجذب الأراضي بالحجاز ، كانا من بين الدوافع التي تغري العربي بالإنخراط في سلك الجندية والمسارعة إلى تلبية داعي الجهاد ، وهذا ما أوضحه خالد بن الوليد في الخطبة التي ألقاها في قواته حينما غزا العراق لأول مرة ، وهاله ما به من ترف ونعيم .

ولكن هذه الإعتبارات تفقد أثرها إذا ما تعلق الأمر بالبلاد المفتوحة . فالجزية ، وخراج الأرض التي رفض عمر أن يقسمها بين الفاتحين ، هما المصدر الدائم لبيت المال . ومن ثم فإنهما عصب مشروعات عمر التوسعية ، ولقد أشار إلى هذا المعنى صراحة عمرو بن العاص ، حين تساءل الخليفة عن السبب الذي يجعل خراج مصر تحت الحكم الإسلامي ، مع ما يتسم به من عدل ، أقل من خراجها تحت حكم الفراعنة الطغاة المتجبرين ، فردّ عمرو على تساؤل الخليفة بقوله : « إن الفراعنة ، مع عتوّهم وتجبرهم ، كانوا أكثر اهتماماً بتعمير الأرض والقيام بالمشروعات العمرانية » .

ولهذا نجد عمر يدفع عماله إلى القيام بالمشروعات العامة التي تعود على أهل البلاد خاصة ، وعلى الأمة الإسلامية عامة ، بالخير والبركة ، ولعل أبرز هذه المشروعات هي :

استصلاح الأراضي في العراق لزيادة علتها :

فبعد أن استتب الأمر للمسلمين في العراق ، أمر عمر رجاله بأن يمسخوا أراضيهم ، وأن ينظّموا مجاريه ليصل الماء إلى كل بقعة صالحة للزراعة ، وأن يصلحوا قناطره وجسوره ، وأن يعمرّوا كل ما ضرّ به الفساد ، وأضرّ به الحرب في أرجائه . وكان المهندسون

الفرس الذين أقاموا بالعراق خير عون للمسلمين في تنفيذ هذه المشروعات الكبيرة .

وقد طُبِّقت الأعمال نفسها في الشام أيضاً .

كما أن عمرو بن العاص أنفق من خراج مصر ، ومن الجزية المضروبة على أهلها ، ما يحتاجه تخليص البلاد من حفر الترعرع ، وإقامة الجسور ، وبناء القناطر ، وإصلاح الجزر .

- ثم حدث أن جاء وفد من أهل البصرة يشكو إلى الخليفة الصعاب التي سيلاقوها ساكنو البلدة من قلة المياه ، وجذب الأرض وملوحتها ، لقربها من البحر ، فزاد عمر في عطائهم ، وأمر عامله على الكوفة ، أبا موسى الأشعري ، فأجرى لهم نهراً من دجلة على ثلاث فراسخ إلى شمالها .

- على أن أكبر المشروعات ، التي قام بها عمر على الإطلاق ، كان حفر خليج أمير المؤمنين ، لربط النيل بالبحر الأحمر ، (بحر القلزم) . وقد اختلفت الروايات في شأن صاحب الفكرة الأولى في حفره . وتذهب بعضها إلى أن عمر بن الخطاب هو الذي اقترح على عمرو بن العاص حفر الخليج ، وأنه قال له في هذا الخصوص :

« قد أُلقي في روعي لما أحببت من الرفق بأهل الحرمين والتوسيع عليهم ، حين فتح الله عليهم مصر . وجعلها قوة لهم ،

ولجميع المسلمين ، أن أحفر خليجاً من نيلها حتى يسيل في البحر ، فهو أسهل لما نريد من حمل الطعام إلى المدينة ومكة ، فإن حملة على الظهر يبعد ، ولا نبلغ مثل ما نريد » .

وتقول الروايات أيضاً أن المصريين شقَّ عليهم تنفيذ المشروع ، وتخوفوا من نتائج ذلك ، فراجعوا عمر ، ولكنه أصرَّ على تنفيذ المشروع .

والراجح أن بداية الفكرة نبعت في مصر ، وقد تكون نتيجة لمشورة الراهب « بنيامين » ، لأن مشروع الخليج قديم ، لم يبتكره العرب ، ولكنهم ساروا فيه على آثار المشروع الفرعوني .

وأياً كانت الآراء ، فإن المقطوع به أن الخليفة عمر ، أقرَّ القيام بالمشروع ، وهو مشروع بالغ الضخامة ، إذا ما قيس بإمكانات العصر الذي تمَّ فيه ، والمدة التي أنجز فيها ، والتي لم تتجاوز العام الواحد .

وكان الخليج يجري مبتدئاً من شمال « بابلون » (باب ليون) متجهاً شرقاً إلى « بلبس » ، فإذا تجاوزها اتجه شرقاً إلى بحيرة التمساح ، ليخرج من جنوب هذه البحيرة ، فيتابع جريانه خلال البحيرات المُرَّة ، فيبلغ البحر الأحمر عند السويس .

احتاج عمر في تنفيذ المشروع إلى دليل من القبط يرشده إليه ،

كافأه عمر على ذلك بأن رفع عنه الجزية .

وتذكر بعض الروايات أيضاً ، أن عمرو بن العاص ، لجأ ، في تنفيذ هذا المشروع ، إلى السخرة ، فجنّد له الألوف من العمال المصريين ، مما عرّضه للسَّخَط والإنتقاد الشديد من قِبَل بعض مؤرخي الفترة من القبط .

ولقد أراد عمرو - عقب نجاح الجزء الأول من المشروع - أن يعيده في صورته القديمة ، اقتداءً بما فعله « بطليموس الثاني » ، ومن قبله « نخاو » ، بأن يحفر خليجاً بين بحيرة التمساح ، وبحر الروم ، يصل مياه البحرين (بحر القلزم وبحر الروم) . ولكن الخليفة ، وبعد تفكير بعواقب الأمور رفض ذلك ، خوفاً من أساطيل الروم من ناحية ، ولأنه كان يريد ألا تفصله عن جنده مياه من ناحية أخرى .

تنظيم القضاء

ارتبط اسم عمر بالقضاء أكثر من ارتباطه بأي وظيفة أخرى ، حتى أصبح اسمه مقروناً بالعدل في كل زمان ومكان .

ولا غرابة في أن يختار عمر لنفسه وظيفة القضاء ، حينما آل الأمر إلى أبي بكر ، وخشي ألا يستطيع القيام وحده بمسؤولية الحكم ، فقال له عمر : « أنا أكفيك القضاء ! » .

والمعروف أنه لم يكن لدى العرب في الجاهلية نظام محكم

للقضاء ، وإن كانوا ، ككل جماعة منظّمة ، قد سلكوا عدّة سبل في
حسم المنازعات التي تشور فيما بينهم بطرق سلمية ، وأشهر هذه
السُّبل ، كما ذكر بعض الرواة ، هي :

- الحكومة :

فقد كان بنو سعد أصحاب الحكومة في قريش ، قبل
الإسلام ، جرياً على عادة العرب في الجاهلية ، من تقسيم الأعمال
الإجتماعية الهامة بين الأسر المرموقة . فكان يحتكم القرشيون ،
وغيرهم ممن يقدون على مكة من العرب ، إلى زعماء بني سعد ،
فيما يقع بينهم من الخصومات .

- الإحتكام :

وهو احتكام العرب إلى الكهّان^(١) ، والعرّافين^(٢) .

التعاهد على دفع الظلم :

نشأ هذا النظام قبيل بعث الرسول ﷺ . وكان سببه أن رجلاً
من الجن قدم مكة معتمراً ببضاعة ، فاشتراها منه رجل من بني
سهم ، ثم رفض أن يدفع له ثمن بضاعته ، أو ردّ قيمتها ، فأعلن
الرجل مظلّمته على رجال من قريش حول الكعبة . فاجتمع زعماء

(١) الكاهن : من كان العرب يعتقدون أنه على صلة بالجن .

(٢) العراف : هو من يعرف الأمور عن طريق الفراسة والقرائن .

قريش في دار عبد الله بن جدعان ، وتحالفوا على ردّ المظالم بمكة ، وإنصاف كل مظلوم ، وقد أُطلق على هذا الحلف ، الذي حضره الرسول ﷺ قبل البعث ، وهو في سن الخامسة والعشرين ، حلف الفضول .

فلما جاء الإسلام كان الجوُّ ممهداً لقيام طريقة سلمية لفضّ كافة المنازعات ، وقد تجلّت رغبة الرسول ﷺ في ذلك صراحة في الحلف الذي عقده بين المهاجرين وبين أهل المدينة من المسلمين ، واليهود ، وغيرهم من المشركين ، حيث يقول : « وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده ، فإن مرده إلى الله عزّ وجلّ ، وإلى محمد رسول الله ﷺ » .

وهكذا جمع الرسول ﷺ بين التشريع والتنفيذ والقضاء ، فلم يكن للمسلمين قاضٍ سواه . وإن كان الرسول ﷺ ، بعد أن شمل الإسلام كافة أرجاء الجزيرة ، قد عهد إلى ولاته بالقضاء بين المسلمين ، فكان القضاء من أهم وظائف الوالي .

وكان الرسول ﷺ يقضي بين المسلمين طبقاً لكتاب الله ، وكانت طرق الإثبات عنده البينة واليمين ، وشهادة الشهود ، والكتابة ، والفراصة ، وغيرها . وكان عليه السلام يقول :

« البينة على من ادعى ، واليمين على من أنكر » . ويقول :

« أُمِرْتُ أَنْ أَحْكُمَ بِالظَّاهِرِ ، وَاللَّهُ يَتَوَلَّى السَّرَائِرَ » .

فلما ولي الخلافة أبو بكر ، عهد بالقضاء في المدينة إلى عمر بن الخطاب ، فظُلَّ سنتين لا يأتیه متخاصمان ، لما اشتهر عنه من الشدّة والحزم .

ولما اتسعت رقعة الدولة الإسلامية ، اضطر الخليفة عمر بن الخطاب ، إلى أن يخصّص قاضياً لكل إقليم هام^(١) . فكان ، بذلك أول من وضع أساس السلطة القضائية المتميّزة . ولم تقتصر إنجازات عمر على تنظيم السلطة القضائية في الإسلام ، بل إنه وضع القواعد الأساسية لسلوك القاضي .

ثم إن عمر بن الخطاب قد استحدث نظام السجون ، لأول مرة في الدولة العربية ، ذلك أن السجن بمعناه الحالي لم يكن معروفاً ، لا في زمن الرسول ، عليه السلام ، ولا في عهد الخليفة أبي بكر ، إذ كان يُكتفى بمنع المتهم من الإختلاط بغيره ، بوضعه في منزل أو مسجد ، على أن يلازمه من يُعيّن لهذا الغرض . ولعلّ السبب في ذلك أن القرآن الكريم لم يلحظ عقوبة الحبس .

(١) وُلّي عمر أبا الدرداء لقضاء المدينة ، وشريحاً بن الحارس الكندي لقضاء الكوفة ، وأبا موسى الأشعري لقضاء البصرة ، وعثمان بن قيس بن أبي العاص لقضاء مصر .

على أنه رغم ظهور القضاء المنظم في هذا العهد المبكر ، فإنه كان يُمارس بطريقة بسيطة ، تعتمد على اجتهاد القاضي ، وفراسته . فكان القاضي يطبق القرآن الكريم والسنة والاجتماع ، وهي المصادر الأساسية للتشريع الإسلامي .

ولم يكن يُفرض على المتقاضين أية رسوم . وكان القاضي يجلس للفصل في المنازعات في منزله ، ثم اتخذ المسجد مكاناً لعقد جلسات القضاء .

دستور القضاء كما وضعه عمر :

لم يكتف عمر بأن جعل القضاء وظيفة مستقلة ، وخصّص لها عاملاً متفرغاً للقيام بها . بل إنه حدّد لعماله على القضاء أسلوب التقاضي ، وآدابه ، ووسائل الفصل بين المتقاضين ، مما يُطلق عليه الفقهاء « دستور القضاء » .

وأهم وثيقة يشير إليها الفقهاء في هذا الصدد ، هي خطاب أمير المؤمنين عمر ، إلى أبي موسى الأشعري ، وقد جاء فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم .

من عبد الله عمر ، أمير المؤمنين ، إلى عبد الله بن قيس ، سلام عليك . أما بعد :

فإن القضاء فريضة مُحْكَمَةٌ وسُنَّةٌ مَتَّبَعَةٌ ، فافهم إذا أدلي

إليك ، وانفذ إذا تبين لك ، فإنه لا ينفع حق لا نفاذ له ، آس بين الناس في مجلسك ووجهك ، حتى لا يطمع شريف في حيفك ، ولا يتأس ضعيف في عدلك .

البينة على من ادعى ، واليمين على من أنكر . والصلح جائز بين المسلمين ، إلا صلحاً أحل حراماً ، وحرم حلالاً .

ولا يمنعك قضاء قضيت به بالأمس ، فراجعت فيه نفسك ، وهديت به لرشدك ، أن ترجع إلى الحق ، فإن الحق قديم ، لا يبطله شيء ، ومراجعة الحق خير من التماس في الباطل .

الفهم ، الفهم ، فيما تلجلج في صدرك ، مما ليس في كتاب الله ، ولا في سنة ، واعرف الأشياء ، والأمثال ، ثم قس الأمور عند ذلك ، واعمد إلى أحبها إلى الله ، وأشبهها بالحق ، فاتبعه ، واعمد إليه .

واجعل لمن ادعى حقاً غائباً أمداً ينتهي إليه أو بيئة عادلة ، فإنه أثبت في الحجة ، وأبلغ في العذر ؛ فإن أحضر بيئة إلى ذلك الأجل ، أخذ بحقه ، وإلا وجهت إليه القضاء .

والمسلمون عدول في الشهادة ، بعضهم على بعض ، إلا مجلوداً في حد ، أو مجرباً عليه شهادة زور ، أو ظنياً في ولاء أو قرابة ، فإن الله قد تولى منكم السرائر ، ودرأ عنكم الشبهات .

وإياك والقلق ، والضجر ، والتأذي بالناس ، والتنكر للخصوم
في مواطن الحق ، التي يُوجب الله بها الأجر ، ويُحسن الذخر ، فإنه
من يخلص نيته ، فيما بينه وبين الله ، تبارك وتعالى ، ولو على
نفسه ، يكفّه الله ما بينه وبين الناس .

ومن تزئّن للناس ، فيما يعلم الله خلافه منه ، شأنه الله ،
وهتك ستره ، وأبدى فعله ، فما ظنك بثواب عند الله ، عز وجل ،
في عاجل رزقه ، وخزائن رحمته والسلام .

وإذا كانت الوثيقة الآنفة الذكر قد جمعت أكبر جانب من آداب
القضاء ووسائله ، فإن الخليفة عمر قد أضاف إليها ما يوضح ما جاء
فيها أو يفسره ، وذلك في كتبه إلى ولاته الآخرين ، ومن ذلك ما كتبه
إلى أبي عبيدة بن الجراح واليه على الشام :

« أما بعد . فإني كتبت إليك في القضاء ، لم آلك ونفسي فيه
خيراً ألزم خمس خصال يسلم لك دينك ، وتأخذ بأفضل حظك :

إذا أحضر الخصمان ، فعليك بالبينات العدول ، والأيمان
القاطعة ، ثم ادنِ الضعيف حتى ينسط لسانه ، ويجترىء قلبه .
وتعاهد الغريب ، فإنه إذا طال حبسه ، ترك حاجته ، وانصرف إلى
أهله ، وإنما ضيّع حقه من لم يرفق به . وآس بينهم في لحظك
وطرفك ، واحرص على الصلح ما لم يتبين لسك القضاء ،
والسلام ! » .

وكتب إلى معاوية يقول :

« أما بعد . فالزم الحق يبين لك الحق منازل أهل الحق ، ولا تقص إلا بالحق والسلام ! » .

وبجوار الوظيفة القضائية ، نشأت وظائف أخرى بحيث يمكن اعتبارها نوعاً من القضاء المتخصص بحسب مصطلحات اليوم ، ونعني بها قضاء المظالم والحسبة . وإذا كان هناك اجماع على أن عمر بن الخطاب هو الذي وضع أساس نظام الحسبة ، فإن قضاء المظالم قد اختلف بشأنه .

نظام الحسبة :

يعرف الماوردي وظيفة المحتسب بأنها : « أمر بالمعروف إذا أظهر تركه ، ونهي عن المنكر إذا أظهر فعله » . وبذات المعنى يقول ابن خلدون : « إن الحسبة هي وظيفة دينية ، من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » .

وأساس هذه الوظيفة قوله تعالى : ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف والنهي عن المنكر ﴾ . وبهذا المعنى تعتبر الحسبة واجباً عاماً على المسلمين .

وكان الخليفة في أول الأمر ، لا سيما عمر بن الخطاب يقوم بالحسبة بنفسه ؛ فكان كثير التجوال بين المسلمين ليلاً ونهاراً ،

يوجههم لالتزام أحكام الدين ومقتضياته في أمورهم المتعلقة بالدنيا والدين . ومع تعاظم مهام الدولة وتخصُّص وظائفها ، تميَّزت وظيفة المحتسب ، وعُهِدَ بها غالباً إلى القضاة ، نظراً للصلة الوثيقة بين اختصاصات المحتسب والقاضي .

النظام الإقتصادي

أحدث عمر بن الخطاب نظاماً اقتصادياً يتلاءم ومصلحة الدولة في عهده ؛ فكان يحضُّ على التجارة ، ويوصي القرشيين ألا يغلبهم أحد عليها ، لأنها ثلثُ المُلْك . ولكنه أبقي الأرض لأبنائها في البلاد المفتوحة ، ونهى المسلمين أن يملكوها على أن يكون لكلٍ منهم عطاؤه ، من بيت المال ، كعطاء الجند في الجيش القائم . وإذا أسلم أحدُ الذميين أخذت منه أرضه ، ووزَّعت بين أهل بلده ، وفُرض له العطاء . وكان الغرض من ذلك أن تبقى لأهل البلاد موارد ثرواتهم ، وأن يعتصم الجند الإسلامي من فتن النزاع على الأرض والعقار ، ومن فتن الدِّعة^(١) والإشتغال بالشراء والحطام .

وأعفى^(٢) عمر عن كثير من الأمور في سبيل الإعانة على تعمير البلاد بأهلها ؛ فصَفَحَ عن أهل السواد « العراق » ليأمنوا البقاء فيه ،

(١) الدعة : الرفاهية .

(٢) أعفى : صفح .

مع أنهم خشوا بالعهد ، وعاونوا الفرس على المسلمين في أثناء القتال .

ولعل أبرز خطوة اقتصادية خطاها عمر بن الخطاب ، هي ما يعتبره الباحثون أول تأميم في الإسلام ، تناول سواد العراق . فقد طلب الذين اشتركوا في فتح العراق من الخليفة أن يوزع عليهم السواد ، وقالوا : « إننا فتحنا البلاد وصار السواد غنيمة ! » .

فأبى عمر هذا الطلب ، معلناً أنه فيء لجميع المحتاجين من المسلمين ، وبيت المال في كل جيل ، وأضاف قائلاً لسائليه : « وماذا أترك لمن بعدكم إذا ؟ » .

هذا الإجراء الذي اعتُبر تأميراً كان الهدف منه أن يكون الفيء عاماً للطبقات المعوزة ولمصلحة المسلمين على مدى الأجيال ، لا مجال فيه لملكيات كبيرة ، أو استغلال واحتكار فرديين .

وتنفيذاً لرغبة عمر ومخططة الإقتصادي ، بُعث عثمان بن حنيف لمسح السواد الذي بلغ ستة وثلاثين ألف ألف جُريب^(١) ، ووضع على كل جريب ، مائناً الماء ، قفيزاً ودرهماً ، إذا زرع قمحاً وشعيراً ، وعلى جريب الكرمة عشرة دراهم ، وجُريب الرطاب

(١) جريب : من مقاييس مساحة الأرض .

خمسة دراهم ، لتُجَبَى باسم بيت المال ، وتوزَّع بأمر الخليفة على المعوزين والمصلحة العامة .

وكانت منطقة السواد التي مسحت تمتد من تخوم الموصل إلى ساحل البحر ، ببلاد عبادان ، من شرق دجلة طولاً ، ومن منقطع الجبل في أرض حلوان ، أقصى العراق العجمي ، إلى منتهى أطراف القادسية المتصلة بالعذيب من أرض العرب عرضاً .

ومما رُوي أن عمر كانت لديه النية ، كما فهم من كلامه في آخر أيامه ، على تصحيح النظام الإقتصادي ، وعلاج مشكلة الفقر والغنى على نحو غير الذي وجدها عليه وقد نسب إليه أنه قال :

« لو استقبلت من أمري ما استدبرت ^(١) لأخذت فضول ^(٢) أموال الأغنياء ، فقسَّمتها على الفقراء ! » .

كما أثر عن عمر قوله : « والله ، ما أحد إلَّا وله حق في هذا المال ، ولئن بقيتُ ليأتينَّ الرَّعي بجبل صفاء حظه منه ، وهو في مكانه ! » .

وكذلك قوله : « ولئن كثر المال لأفرضنَّ لكل رجلٍ ٤٠٠٠ »

(١) يعني : لو رجعت من عمري ما فات .

(٢) فضول : ما زاد عن الحاجة .

درهم له ، و ١٠٠٠ لمن يخلفه من أهله ، و ١٠٠٠ لفرسه ونعله ،
و ١٠٠٠ لسلاحه .

وأخيراً قَسَمَهُ : « أما والله ، لئن بقيتُ لأدعنَّ الأرامل لا يفتقرن
لأمر بعدي ! » .

إلا أن مقتل الخليفة عمر ، بعد فترة وجيزة ، حال دون تنفيذ
هذه العزيمة الواعدة .

الفصل السادس

عدالة عمر

مقومات العدالة عند عمر

كان عمر بن الخطاب عادلاً ، ورث القضاء من قبيلته وآبائه ؛ فهو من أنبه بيوت بني عدي الذين تولوا السفارة والتحكيم في الجاهلية ، وراضوا أنفسهم ، من أجل ذلك ، جيلاً بعد جيل على الإنصاف . وجده نفيـل بن عبد العزى هو الذي قضى لعبد المطلب على حرب بن أمية ، حين تنافرا إليه ، وتنافساً على الزعامة . فهو عادل من عادلين ، وناشئ في عهد الحكم والموازنة بين الأقوياء .

وكان عادلاً لأنه قوي مستقيم بتكوين طبعه ، وهو عادل لأن آله من بني عدي ذاقوا طعم الظلم من أقربائهم بني عبد شمس ، وكانوا أشدّاء في الحرب ، يسمونهم « لعقة الدم »^(١) . ولكنهم غلبوا على أمرهم لقلّة عددهم بالقياس إلى عدد أقربائهم ، فاستقر فيهم بغض

(١) سموا كذلك لأنهم تحالفوا مع غيرهم ، فنحروا جزوراً ، فلعقوا دمه ، أو غمسوا أيديهم فيه .

القوي المظلوم للظلم ، وحبه للعدل الذي مارسوه ودرّبوا عليه .

ولعلّ العدالة في حياة عمر تكتسب أهميتها من كونها لم تقتصر على نمطٍ معيّن من التصرف ، أو موقفٍ مميّزٍ عابرٍ اتخذته في قضية من القضايا ، وإنّما كان لها سمة عامة ، طبعت كل تصرفاته ومواقفه وأعماله .

أشكال العدالة عند عمر

لعلّ أهم وأجمل صور وأشكال العدالة عند عمر هو ما يمكن أن تختصره العناوين التالية :

أ - اهتمامه بشؤون الناس وشجونهم ، وخاصة الفقراء منهم .
وفي هذا السياق :

خرج عمر يوماً إلى السوق ، فلحقته شاة ، وقالت له : « يا أمير المؤمنين ، هلك زوجي ، وترك صبيّة صغاراً . والله ، ما ينضجون كراعاً ، ولا لهم زرع ، ولا ضرع ، وخشيت عليهم الضباع ، وأنا ابنة خفاف الغفاري ، وقد شهد أبي الحديبية » .

فوقف معها ، وقال : « مرحباً ، مرحباً ، بنسبٍ قريب ! » .

ثم انصرف إلى بعير ظهير ، فحمل عليه غرارتين ملاًهما طعاماً ، وجعل بينهما نفقةً وثياباً ، ثم ناولها حطامه ، وقال لها : « اقتاديه ، فلن يفنى هذا حتى يأتيكم الخير ! » .

فقال رجل : « يا أمير المؤمنين أكثر لها ! » .

فقال له : « ثكلتك أمك ، والله ، إني لأرى أب هذه وأخاها
قد حاصرا حصناً زماناً فافتتحاه ، ثم أصبحنا نستفيء سهامها
فيه ! » .

ثم إن عمر ، مرّ برحبة من رحاب المدينة في أثناء عَسَسِهِ^(١) في
الليل ، فسمع أنين امرأة ورجلاً قاعداً ، فسلم عليه وسأله ، فقال
له : « امرأة تمخض »^(٢) .

فسأله : « هل عندها أحد ؟ » .

قال : « لا ! » .

فذهب إلى زوجته أم كلثوم ، وقال لها : « أجر ساقه الله
إليك . خذي ما يصلح المرأة لولادتها ، وجيئيني ببرمة^(٣) وشحم
وحبوب ! » .

ثم انطلق مع زوجته ، وهو يحمل البرمة إلى أن أتى المكان ،
فامر الرجل أن يُوقد تحت البرمة حتى أنضجها ، وولدت المرأة ،
فهتفت أم كلثوم : « بشرّ صاحبك يا أمير المؤمنين بغلام ! » .

(١) العسس : التفتيش في الليل أو الحراسة .

(٢) تمخض : تنهياً للولادة .

(٣) البرمة : قدر من حجارة .

فذهل الرجل ، وقال له : « مكانك ! » .

ثم حمل البرمة ، ووضعها على الباب . وقال :
« اشبعيها ! » .

فلما شبع ، وضع البرمة أمام الرجل ، وقال له : « كُلْ ،
فإنك سهرت الليل ! » . ثم قال له :

« إذا كان غداً ، فأتنا نأمر لك بما يصلحك ! » . ففعل ، فأجازه
وأعطاه .

ومن هذا الباب أيضاً ، ما رُوي عنه أنه خرج مع رفيق له في
الليل حتى اقتربا من رَكْبٍ في ضاحية المدينة ، فإذا امرأة معها صبيان
صغار ، وقدر منصوبة على نار ، وصبيانها يتضاغون ، فسألها عمر :
« ما بالكم ؟ » .

قالت : « قد ضرَّ بنا البرد والليل ! » .

قال : « وما بال الصبية يتضاغون ؟ » .

قالت : « الجوع ! » .

قال : « فأَيُّ شيء في القدر ؟ » .

قالت : « ما أسكتهم به حتى يناموا ، والله بيننا وبين عمر ! » .

قال : « أي رحمك الله ، وما يدري عمر بكم ؟ » .

قالت : « يتولى أمرنا ثم يغفل عنا ! » .

فخرج مهرولاً إلى بيت الدقيق ، فأخرج عدلاً من دقيق ، وكبةً من شحم ، وقال لرفيقه : « احمله عليّ ! » .

فقال له : « أنا أحمله عنك » .

فقال : أنت تحمل وزري يوم القيامة ؟ لا أمّ لك ! » .

فحملها عمر ، وانطلق إلى المرأة وأولادها . ثم جعل ينفخ النار تحت القدر حتى نضج الطعام ، وأكل الصبيّة وشبعوا ، فجعلت تقول : « جزاك الله خيراً . كنت أولى بهذا الأمر من عمر ! » .

فأجابها عمر : « قولي خيراً ، إذا جئت أمير المؤمنين وجدتني هناك ، إن شاء الله ! » .

المصلحة العامة فوق كل اعتبار

كان عمر في عدله لا يفرّق بين قريب وبعيد ؛ فالمؤمنون عنده جميعاً سواء ، ومن دخل في ذمة المسلمين أصبح له من الحق في عدل أمير المؤمنين ما للمسلمين أنفسهم . إن حب عمر للعدل جعله يطلب إلى عمّاله أن يكونوا مثله ، عدلاً وإنصافاً . كما طلب إلى الناس ، في شتى أرجاء دولته المترامية الأطراف ، أن يرفعوا إليه ما قد ينزل بهم على يد عمّاله من حيف حتى ينصفهم ، إذا رأى إنصافهم حقاً ؛ فإن شكوا إليه عاملاً كيداً بغير حق أنصف هذا العامل

منهم لتبقى للحكم هيئته ، ويبقى للعامل العادل مكانه وسلطانه .

وضمن هذه المفاهيم ، جاءه رجل من أهل مصر ، وقال له : « يا أمير المؤمنين ، هذا مقام العائذ منك ؟ » .

قال : « وما لك ؟ » .

قال : « أجرى عمرو بن العاص الخيل بمصر ، فأقبلت فرس لي ، فلما تراءها الناس قام محمد بن عمرو ، فقال : فرسي ورب الكعبة ! » .

فلما دنا مني عرفته ، فقلت : « فرسي ورب الكعبة ! » فقام يضربني بالسوط ، ويقول : « خذها ، خذها ، وأنا ابن الأكرمين ! » .

فكتب الخليفة إلى عمرو بن العاص يستدعيه مع ابنه فقيما عليه . ثم استدعى المصري ، وقال له : « دونك الدرّة ، اضرب ابن الأكرمين ! » .

فضربه حتى أثخنه .

ثم قال له : « أجلبها على صلعة عمرو ، فوالله ما ضربك إلا بفضل سلطانه ! » .

فقال الرجل : « يا أمير المؤمنين ، لقد ضربني من ضربني ! » .

فقال : « أما والله ، لو ضربته ما حلنا بينك وبينه حتى تكون أنت الذي تدعه ! » .

ثم هتف بعمر وقائلاً : « متى استعبدتُم الناس ، وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ ! » .

وجيء إلى عمر بمالٍ ، فبلغ ذلك حفصة أم المؤمنين ، ابنته ، فجاءت إليه ، وقالت : « يا أمير المؤمنين ، حقُّ أقربائك من هذا المال ، وقد أوصى الله بالأقربين ! » .

قال : يا بُنَيَّةُ ، حقُّ أقربائي في مالي . وأما هذا ففِيء المسلمين . غششت أباك ، ونصحت أقرباءك . قومي عني ! » .
فقامت تجر ذيلها .

ورُوي عن عمرو بن العاص أنه قال :

ما رأيت أحداً بعد نبي الله ﷺ وأبي بكر أخوف لله من عمر . لا يبالي على من وقع الحق على ولد أو والد . ولقد كنت في مصر ، فاستأذن عليّ عبد الرحمن ابنه (ابن عمر بن الخطاب) مع رفيق له اسمه أبو سروعة ، فأذن لهما فدخلتا متنكرين ، فقالا : أقم علينا حدَّ الله ، فإنَّا قد أصبنا البارحة شراباً فسكرنا . فذبرتُهما وطردتهما . فقال عبد الرحمن : إن لم تفعلْ أخبرْتُ أبي (عمر) إذا أقدمت عليه . فخفتُ من عمر ، فأخرجتهما إلى صحن الدار فضربتُهما الحدَّ ،

وأخذ عبد الله بن عمر أخاه وأبا سروعة إلى بيت من الدار ، فحلق رأسيهما ، حيث يُحلق رؤوس الذين يحدّون من السكر زيادة في التعزير . ولم أكتب إلى عمر بالحادث . ولم يمضِ طويل وقت حتى جاءني منه كتاب يقول فيه :

« من عبد الله عمر أمير المؤمنين ، إلى العاصي بن العاص .

عجبت لك لجراتك عليّ وخلافك لعهدي . ولقد خالفت فيك أصحاب بدر ممن هم خير منك ، واخترتك لجذلك عني ، وإنفاذ عهدي ، فأراك قد تلوّثت بما قد تلوّثت ، فما أراني إلاّ عازلك فمسيء عزلك !

تضرب عبد الرحمن في بيتك ، وقد عرفت أن هذا يخالفني . إنما عبد الرحمن رجل من رعيّتك تصنع به ما تصنع بغيره من المسلمين . ولكن قلت : هو ولد أمير المؤمنين ، وقد عرفت أن لا هواة لأحدٍ من الناس عندي في حق يجب لله ، فإذا جاءك كتابي هذا فابعث به في عبادة على قُبّ حتى يعرف سوء ما صنع ! » .

فبعثت به كما أمرني وكتبت له مُقسماً أنني أقيم الحدود في صحن داري على الذمّي والمسلم . ولما وصل عبد الرحمن طلب السياط ليجلده . فكلّمه عبد الرحمن بن عوف قائلاً : يا أمير المؤمنين ، قد أقيم عليه الحدّ مرة ، فلم يلتفت إليه فضربه وحبسه ، وكان يصيح أنا مريض ، فلم يعبأ بصياحه .

وذكر أن عبد الرحمن مات بعد شهر ، فحسب بعض الناس أنه مات من الجلد .

وخطب عمر مرة في الناس ، فقال : « أيها الناس ، من رأى منكم في أعوجاجاً فليقومه ! » .

فقام رجل ، وقال : « والله ، لو وجدنا فيك أعوجاجاً لقومناه بسيوفنا ! » .

فقال عمر : « الحمد لله الذي أوجد في المسلمين من يقوم أعوجاج عمر بنفسه ! » .

وسأل عمر مرة المهاجرين والأنصار : « رأيتم لو ترخصت في بعض الأمور ، ما كنتم فاعلين ؟ » .

فسكتوا ، فأعاد السؤال مرتين أو ثلاثاً ، ثم قال بشير بن سعد : « لو فعلت قومناك تقويم القدح ! » .

فقال عمر : أنتم إذن ، أنتم إذن ! « استحساناً لقوله . ولعل من أهم ما ذكر من أقواله ، التي تدل على شدة ورعه وإيمانه وحرصه على المسلمين ، ما يلي :

« أربع من الإسلام لست مضيعهن ، ولا تاركهن لشيء أبداً : القوة في مال الله ، وجمعه إذا جمعناه وضعناه حيث أمر الله ،

وقصدنا آل عمر ليس في أيدينا ، ولا عندنا منه شيء .

والمهاجرون الذين تحت ظلال السيوف ألا يُحبسوا ، ولا يُحجروا ، وأن يوفر فيء الله عليهم وعلى عيالاتهم . وأكون أنا للعيال حتى يقدموا .

والأنصار الذين أعطوا الله ، عز وجل ، نصيباً ، وقتلوا الناس كافة ، أن يُقبل من مُحسنهم ، ويُتجاوز عن مسيئهم . وأن يُشاؤروا في الأمر .

والأعراب الذين هم أصل العرب ومادة الإسلام ، أن يُؤخذ منهم صدقتهم على وجهها ، ولا يُؤخذ منهم دينار ولا درهم ، وأن يرد على فقرائهم ومساكينهم » .

ومن مآثور حِكْمِهِ :

« الرعية مُؤدِّيهِ إلى الإمام ما أدَّى إلى الله ؛ فإذا رفع الإمام فارفعوا » .

« لا ينبغي أن يلبي هذا الأمر إلا رجلٌ فيه أربع خلال : اللين في غير ضعف ، والشدة في غير عنف ، والإمساك في غير نحل ، والسماحة في غير سرف » .

ومن ذلك أيضاً : « يهدم الإسلام ثلاث : زلة عالم ، وجدال منافق بالقرآن ، وأئمة مضلون » .

« يَهْدِمُ الْإِسْلَامَ ثَلَاثٌ : زَلَّةٌ عَالَمٌ ، وَجِدَالٌ مُنَافِقٌ بِالْقُرْآنِ ،
وَأَثَمَةٌ مُضِلُّونَ » .

زَهْدُهُ وَتَوَاضَعُهُ

إن زهد عمر في أنعم الحياة هو الذي طَوَّعَ له أن يكون مَضْرِبَ
المَثَلِ في العَدْلِ ؛ فقد كان ، بهذا الزهد ، لا يخشى إلا الله ، ولا
يرجو أحد غيره .

وكان يعلم أن الله محاسبه عما وَلِيَ من أمر المسلمين ، فيزداد
خشيةً ، وتزيده الخشية حرصاً على تحري العَدْلِ إِرْضَاءً لِّلَّهِ جَلَّ
شأنه .

وزهد عمر في أنعم الحياة هُوَ الَّذِي دَفَعَ إِلَى قَلْبِهِ مِنَ الرِّفْقِ
بِالْفُقَرَاءِ ، وَالْعَطْفِ عَلَيْهِمْ ، مَا خَشِيَ النَّاسُ يَوْمَ اسْتِخْلَافِ أَلَّا يَكُونَ
لَهُ مِنْهُ نَصِيبٌ ؛ فقد رَأَوْهُ فِي عَهْدِ الرَّسُولِ ﷺ عَادِلًا صَارِمَ الْعَدْلِ ،
وَرَأَوْهُ فِي عَهْدِ أَبِي بَكْرٍ شَدِيدَ الْبَطْشِ بِالظَّالِمِينَ ، فَلَمْ يَدْرُ بِخُلْدِهِمْ
أَنَّهُ سَيَعْرِفُ الرَّحْمَةَ فِي حَيَاتِهِ . لهذا لم يلبث حين آَلَ الْأَمْرُ إِلَيْهِ أَنْ
اِحْتَفَظَ بِكُلِّ شِدَّتِهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ، ثُمَّ كَانَ بِالضَّعْفَاءِ وَالْفُقَرَاءِ بَرًّا ،
رَحِيمًا ، يَكْفِكُفُ دُمُوعَهُمْ ، وَيَحْمِلُ إِلَيْهِمْ ، بِنَفْسِهِ ، مَا لَهُمْ مِنْ
حَقُوقٍ ، وَيُرْعَاهُمْ صَغَارًا وَكِبَارًا ، لِذَلِكَ وَجَدَ هَؤُلَاءِ فِي عَمْرِ مَلْجَأَهُمْ
وَمَلَاذِمَهُمْ .

ومما رُوي عن زهده في زينة الحياة الدنيا ، وطيبات العيش ، أن أبا عثمان الفهري ، قال : « رأيت عمر بن الخطاب يطوف بالبيت ، وعليه إزار فيه اثنتا عشرة رقعة ، إحداهن بأديم أحمر ، وأنه أبطأ مرة عن صلاة الجمعة . فلما جاء ، وصعد المنبر ، اعتذر للناس فقال : إنما حبسني ثوبي هذا ! كان يُغسل ، فلم يكن لي ثوب غيره . وأن ابن عمر قال : والله ، لقد رأيت النبي ﷺ يرقع ثوبه ، ورأيت أبا بكر تخلل بالعباءة ، ورأيت عمر يرقع جبته » .

وحدث في سنة من السنين أن أصاب الحجاز جَدب شديد ، وعرفت هذه السنة بـ « عام الرمادة » لأن الأرض صارت بلون الرماد ، فحرم عمر نفسه من أي طعام طيب ؛ من لحم ، وسمن ، واكتفى بالزيت والخبز .

وقد أثر عنه قوله : « والله ، ما يمنعنا أن نأمر بصغار المعزى ، فُتُسمَطَ لنا ، وبلباب البر ، فيُخبز لنا ، وبالزبيب ، فيُنْبَذَ لنا ، فنأكل ذاك ، ونشرب هذا . ولكننا نريد أن نستبقي طيباتنا ، لأن الله يقول : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ .

رعايته لأهل الذمة

إن عدالة عمر الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لم تكن لتنتهي عند المسلمين فقط ، بل امتد أثرها وجعلها إلى أهل الذمة أيضاً .

فلو كان الإسلام ظالماً بطبيعته لمن لم يدخلوا فيه ، لكان عمر
أشد المسلمين ظلماً لهم وقسوةً عليهم ، لكنه (أي عمر) كان في
الواقع من أشد المسلمين رعاية لعهد أهل الكتاب ، مُدُّ كان من أشد
المسلمين غيرة على دينه ، وعملاً بآدابه .

وكان شأنه مع من صالحوه ، وعاهدوه ، أن يفي بعهدهم
ويخلص في الوفاء به إخلاص مَنْ يطالب نفسه به قبل أن يطالبه
الآخرون .

كتب عمر للنصارى في بيت المقدس أماناً على أنفسهم ،
وأولادهم ، ونسائهم ، وأموالهم ، وجميع كنائسهم لا تهدم ، ولا
تُسكن .

وعندما حان وقت الصلاة ، وهو جالس في صحن كنيسة
القيامة ، خرج ، وصلى خارج الكنيسة على الدرجة التي على بابها
بمفرده ، وقال للبطررك : « لو صليت داخل الكنيسة لأخذها
المسلمون من بعدي ، وقالوا : هنا صلى عمر ! » .

ثم كتب كتاباً يوصي به المسلمين ألا يُصلي أحد منهم على
الدرجة ، إلاً واحداً واحداً ، غير مجتمعين للصلاة فيها ، ولا مؤذنين
عليها .

لقد كان عهده لنصارى بيت المقدس مثلاً للتسامح ،

والمروءة ، والعدالة السياسية . قال لهم فيه :

« . . . هذا ما أعطى عبد الله عمر ، أمير المؤمنين ، أهل إيلياء من الأمان . أعطاهم أماناً لأنفسهم ، وأموالهم ، وكنائسهم ، وصلبانهم ، وسقيمتها ، وبريئتها ، وسائر ملتها : انه لا تُسكن كنائسهم ، ولا تُهدم ، ولا يُنتقض منها ، ولا من خيرها ، ولا من صليبهم ، ولا من شيء من أموالهم .

لا يُكرهون على دينهم ، ولا يُضار أحد منهم ، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود .

وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يُعطي أهل المدائن ، وأن يُخرجوا منها الروم واللصوص^(١) ؛ فمن خرج منهم ، فهو آمن على نفسه وماله ، حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن أقام منهم ، فهو آمن ، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية . . .

ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ، ويخلى بيعهم وصلبهم^(٢) ، فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم ، وصلبهم ، حتى يبلغوا مأمنهم . . . » .

أما إخراج بعض الذميين من الجزيرة العربية ، فقد اعتبره

(١) اللصوص : اللصوص ، مفردا : لصت .

(٢) البيع : جمع بيعة ، وهي معبد النصارى . والصلب : جمع صليب .

بعض الباحثين من المآخذ على سياسة عمر . والراجح أن الإجراءات التي اتخذها الخليفة بحق بعض الذميين من سكان الجزيرة ، إنما اقتضته سياسة الدولة عامة ، ومصلحة المسلمين خاصة . فما خرج من الذميين أحد إلا وقد غدر بعهدده ، وكرّر ذلك مرة بعد مرة ، كما صنع أهل خيبر .

فقد صالح النبي ﷺ يهود خيبر على أن يبقوا في مساكنهم ، ولا يأكلوا الربا ، ولا يتعاملوا به . وجاء أبو بكر فجدّد الصلح على ذلك . ثم استخلف عمر ، فرجعوا إلى الربا ، وأفرطوا فيه ، وكانوا قد بلغوا أربعين ألفاً فتحاسدوا فيما بينهم ، وأتوا عمر يسألونه إجلاءهم ، فاستحبّ هذا الجلاء .

على أنه لم يكن يأبى على التجار المأمونين أن يدخلوا الجزيرة العربية ، ويؤدّوا العشور . فلما كتب إليه المشركون من أهل منبج . أن : « دعنا ندخل أرضك تجاراً وتعشرنا »^(١) ، شاور أصحاب الرسول ﷺ ، فأشاروا عليه بقبولهم ، فدعاهم إليه .

على أن خطة الإجلاء ، التي لجأ إليها عمر وأيقن بصوابها وضرورتها ، كانت مقترنة بأمرين أساسيين :

الأول : أن الجزيرة حرم الإسلام الذي كان يحيط به أعداؤه

(١) أي تدعنا ندفع العشور .

ويتربصون به الدوائر ، ويشيرون الفتنة على أطرافه ، كما صنع الفرس بالعراق ، والروم بالشام . ولا أمان على حرم يسكنه أناس فيهم من يغدر بأهله ، بل فيهم من هؤلاء كثيرون .

الثاني : أن عمر قد سوى بين الإسلام والنصرانية في هذه الخطّة ؛ فحفظ حرم النصرانية ببيت المقدس للمسيحيين ، لا يسكنه معهم مَنْ لا يقبلونه ، كما حفظ حرم الإسلام بالجزيرة العربية للمسلمين ، لا يسكنه معهم من يحذرون غدره .

الفصل السابع

مقتل عمر بن الخطاب

حادثة الإغتيال

اغتيال عمر بن الخطاب ، في السادس والعشرين من شهر ذي الحجة ، من السنة الرابعة والعشرين للهجرة ، بحربة طعنه بها فارسي اسمه أبو لؤلؤة ، وهو يصلي بالناس صلاة الصبح . وبذلك تكون مدة خلافته عشر سنين وستة أشهر تقريباً .

وأبو لؤلؤة مملوك للمغيرة بن شعبة ، وقد ذكر أن المغيرة فرض على مملوكه مئة درهم في الشهر ، فاستكرها ، وجاء إلى الخليفة شاكياً ، فسأله عن صنعته ، فقال : إنه نجار ، وحدّاد ، ونقّاش . فقال له عمر : « لا أرى خراجك كثيراً ! » .

ثم قال : « بلغني عنك أنك تستطيع أن تعمل رُحى تطحن بالريح ، فأعمل لي رحى ! » .

فأجابه أبو لؤلؤة : « لئن سَلِمْتَ لأعملنّ لك رحى يتحدث بها من بالمشرق والمغرب ! » ثم انصرف عنه ساخطاً .

فقال عمر لمن حوله : « لقد توعدني العبد أنفاً ! » .

قال عمرو بن ميمون واصفاً حادثة الإغتيال :

إنني لقائم ما بيني وبين عمر إلا ابن عباس غداة أصيب ، وكان إذا مرَّ بين الصفوف قال : استووا حتى إذا لم يرَ فيهم خللاً ، تقدَّم فكبَّر . فربما قرأ بسورة يوسف أو النحل ، ونحو ذلك في الركعة الأولى حتى يجتمع الناس . فما هو إلا أن كبَّر حتى سمعته يقول : قتلني الكلب !! حين طعنه ، وجاءه في كتفه وفي خاصرته ، وقيل ضربه ست ضربات ، وقيل : ثلاثة ضربات .

فطار العليج بسكين ذات طرفين ، لا يمرُّ على أحد يميناً ولا شمالاً إلا طعنه ، حتى طعن ثلاثة عشر رجلاً ؛ مات منهم تسعة وقيل سبعة . فلما رأى ذلك رجل من المسلمين (هو عبد الرحمن بن عوف ، طرح عليه برنساً له ليأخذه ، فلما ظنَّ العليج أنه مأخوذ نحر نفسه .

وتناول عمر بيد عبد الرحمن بن عوف ، فقدمه . فأما من يلي عمر ، فقد رأى الذي رأيت . وأما نواحي المسجد فإنهم لا يدرون ما الأمر إلا أنهم فقدوا صوت عمر ، جعلوا يقولون : سبحان الله ! فصلَّى بهم عبد الرحمن صلاة خفيفة . وروى أن عمر لما طعن انصرف إلى منزله ، وماج الناس حتى كادت تطلع الشمس ، فنادى عبد الرحمن : « يا أيها الناس ، الصلاة ، الصلاة ! » . ثم تقدَّم

فصلِّي بأقصر سورتين في القرآن .

قال ابن عباس : « لم أزل عند عمر ، ولم يزل في غشية واحدة ، حتى أسفر فقيلاً : إنكم لن تفرعوه بشيء مثل الصلاة ، إن كانت به حياة ، فقالوا : الصلاة يا أمير المؤمنين ، الصلاة ! فانتبه ، وقال : الصلاة ، والله ، إذن ولا حق ونظر في وجوهنا . ثم قال : أصلي الناس ؟ »

قال ابن عباس : قلت نعم ! قال : لا إسلام لمن ترك الصلاة . ثم دعا بوضوء فتوضأ ، ثم صلى وإن جرحه يتصبب دماً . ثم قال : يا ابن عباس ، اخرج فسل من قتلني ! فخرجت من باب الدار ، فإذا الناس مجتمعون ، جاهلون بأمر عمر ، فقلت : من طعن أمير المؤمنين ؟ قالوا : طعنه عدو الله أبو لؤلؤة ، غلام المغيرة بن شعبة ، ثم طعن معه رهطاً ثم قتل نفسه .

فرجعت ، فإذا عمر يمدني النظر ، يستأني خبر ما بعثني إليه . فقلت : « غلام المغيرة بن شعبة » . قال : « الحمد لله الذي لم يجعل قاتلي يحاجني عند الله بسجدة سجدها له قط ! ما كانت العرب لتقتلني ! » .

ولما احتمل ، ودخل الناس عليه ، قال : يا ابن عباس ، اخرج ، فناد في الناس : « أعن ملأ منكم ومشورة كان هذا الذي أصابني ؟ » .

فقالوا : « معاذ الله ، والله ما علمنا ولا اطلعناه ! » .

وقال البديرون المهاجرون والأنصار حين سألهم : « لا والله ، لوددنا أن الله زاد في عمره من أعمارنا ! » .

قال ابن عمر : فسمعت عمر يقول : « أرسلوا إليّ طبيب ينظر إلى جرحي هذا ! فأرسلوا إلى طبيب من العرب ، فسقى عمر نبيذاً ، فشبه النبيذ بالدم حين خرج من الطعنة . فدعوتُ طبيباً من الأنصار ، من بني معاوية ، فسقاه لبناً فخرج اللبن من الطعنة بصديد أبيض . فقال له الطبيب : يا أمير المؤمنين اعْهَدْ^(١) . قال عمر : صدقني أخو بني معاوية ، ولو قلت غير ذلك لكذبتك ! ثم إن عمر بدأ يألم ، فقال له ابن عباس ، وكأنه يجزعه (أي يزيل جزعه) : يا أمير المؤمنين ؛ ولئن كان ذاك ، لقد صحبت رسول الله ﷺ ، فأحسنت صحبتته ، ثم فارقت ، وهو عنك راضٍ ، ثم صحبت أبا بكر ، فأحسنت صحبتته ، ثم فارقت ، وهو عنك راضٍ . ثم صحبت صحبتهم ، ولئن فارقتهم ، وهم عنك راضون » .

ثم إن عمر قال لابنه عبد الله : « يا عبد الله بن عمر ، انظر ما عليّ من الدّين ؟ » .

فحسبوه ، فوجدوه نحو ست وثمانين ألف درهم ، قال عمر :

(١) يقصد أنه ميت لا محالة .

« إن وفي به مال عمر فأدّه من أموالهم ، وإلا فاسأل فيه بني عديّ ، فإن لم تفِ أموالهم فاسأل فيه قريشاً ، ولا تعدّهم إلى غيرهم » .

قال عبد الرحمن بن عوف : « ألا تستقرضها من بيت المال حتى تؤدّيها ؟ » .

قال عمر : « معاذ الله ، أن تقول أنت وأصحابك بعدي : أمّا نحن فقد تركنا نصيبنا لعمر ، فتعزّوني بذلك ، فتتبعني تبعته ، وأقع في أمر لا ينجني إلا المخرج منه ! » .

وحينما شعر بدنو أجله أرسل يستأذن أم المؤمنين عائشة بأن يُدفن في بيتها إلى جانب صاحبيه ، فأذنت له ، فدفن بعد موته إلى جانب النبي ﷺ وأبي بكر .

شورى الستة في الخلافة بعد عمر

بعد أن طعن عمر ، وقبل ساعاتٍ من وفاته ، قال له أصحابه : « أوصي يا أمير المؤمنين واستخلف ! » .

فقال : « إن استخلف فقد استخلف مَنْ هو خير مني ، يعني أبا بكر ، وإن أترك ، فقد ترك مَنْ هو خير مني ، يعني النبي ﷺ . ولكنني أخاف الفتنة ، ولست أرى أحداً أحقّ بهذا الأمر من النفر الذين توفي رسول الله ﷺ ، وهو عنهم راضٍ ، وهم ستة : عليّ ،

وعثمان ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبد الله ، وسعد بن أبي وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف .

ثم دعا عمر هؤلاء الستة ، وقال لهم : « اختاروا واحداً منكم ، واحسنوا مؤازرته ، وأعينوه ، واحضروا مجلس مشورتكم عبد الله بن عمر ، دون أن يكون له من هذا الأمر شيء » .

ثم قال للمقداد بن الأسود : « إذا وضعتوني في حفرتي ، فاجمع هؤلاء الرهط في بيت حتى يختاروا رجلاً منهم ، وقم على رأسهم ، فإن اجتمع خمسة ورضوا بواحد ، وأبى السادس فاشرخ رأسه بالسيف ، وإن اجتمع أربعة ، وأبى الخامس والسادس فاشرخ رأسيهما بالسيف ، وإن اجتمع ثلاثة وخالف ثلاثة ، فحكموا عبد الله بن عمر ، فإن لم يرضوا بحكمه ، فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف » .

ثم قال لأبي طلحة الأنصاري : « اختر خمسين رجلاً من الأنصار ، فاستحث هؤلاء الرهط حتى يختاروا رجلاً منهم » .

ثم قال لصُهَيْب : « صلِّ بالناس ، وليخل هؤلاء القوم في بيت ، فإذا اجتمعوا على رجل ، فمن خالف فاضربوا رقبتة ! » .

ومما رُوي أن عمر استدعى علياً ، وقال له : « أنشدك الله إن

وُلِّيت من أمر الناس شيئاً أن لا تحمل بني هاشم على رقاب الناس ! » .

واستدعى عثمان ثم سعداً بن أبي وقاص ، فناشدهما بمثل ذلك أيضاً .

ثم إن الستة المجتمعين جعلوا أمرهم إلى عبد الرحمن بن عوف يختار لهم ، فاستدعى عبد الرحمن بن عوف إليه علياً وعثمان ، وقال لهما :

« إني قد سألت الناس فلم أجدهم يعدلون بكما أحداً » .

ثم أخذ العهد على كل منهما ، لئن ولّاه ليعدلن ، ولئن وُلّي عليه ليسمعن وليطيعن . وخرج بهما إلى المسجد في الصباح ، بعد أن نُودي في الناس : أن الصلاة جامعة .

وغصّ المسجد بالناس ، فصعد عبد الرحمن المنبر ، ودعا دعاءً طويلاً ، ثم قال :

« أيها الناس ، إن الناس قد أحبوا أن يلحق أهل الأمصار بأمصارهم ، وقد علموا من أميرهم » .

فقال سعيد بن زيد : « إنما نراك لها أهلاً ! » .

قال عبد الرحمن : « أشيروا عليّ بغير هذا ! » . فأشار عمار بن ياسر ، والمقداد بن عمرو بعليّ ، وأشار عبد الله بن أبي

سرح ، وعبد الله بن أبي ربيعة بعثمان .

أدى اختلاف الفريقين إلى تشاتم بين عمار وابن أبي سرح ،
فصاح سعد بن أبي وقاص : « يا عبد الرحمن ! افرغ قبل أن يَفْتِنَ
الناس ! » .

قال عبد الرحمن : « إني قد نظرت وشاورت فلا تجعلن ، أيها
الرهط ، على أنفسكم سبيلاً ! » .

ثم إنه دعا علياً فأخذ بيده ، وقال : « هل أنت مبايعي لتعملن
بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفين من بعده ؟ » .

قال علي : « أرجو أن أفعل ، وأعمل بمبلغ علمي
وطاقتي ! » . وأرسل يده .

ودعا عثمان ، وأخذ بيده . وقال له نفس العبارة .

قال عثمان : « نعم ! » .

فرفع عبد الرحمن رأسه إلى سقف المسجد ويده في يد
عثمان ، وقال ثلاثاً : « اللهم ، اسمع ، واشهد ! » . ثم قال :
« اللهم ، إني قد خلعت ما في رقبتني من ذلك ، وجعلته في رقبة
عثمان » ، وبايعه . فازدحم من بالمسجد يبائعون عثمان .

خاتمة

وبعد .

ذلك هو عمر بن الخطاب .

شخصية فذة، دفعها الإسلام إلى القمة ، فلعبت دوراً خطيراً
في تثبيت الأسس الإدارية للدولة العربية الإسلامية الجديدة .

شخصية نَدَرَ أن ينساها من عرفها ، رغم صعوبة تحليلها ،
وسَبَرِ أغوارها .

شخصية رجلٍ تولَّى إمرة المؤمنين ، فكان لها تاجاً ، ولهم
أباً ، وأخاً ، وراعياً ، وحامياً ، وحالماً .

عمر بن الخطاب : الذي إذا ذكر العدل اقترن باسمه ، وإذا
ذُكرت الرَّحمة اتجه الفكر إليه ، وإذا ذُكر البائس كان الغاية فيه .

ويكفي هذا الرجل المسلم ما قاله ﷺ فيه : « مَثَلُكَ يا عمر
مَثَلُ نُوحٍ ، قال : ربِّ لا تدر على الأرض من الكافرين دياراً .
ومَثَلُكَ مَثَلُ مُوسَى ، قال : رَبَّنَا اطْمِسْ على أموالهم ، واشدّد على
قلوبهم ، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم » .

المحتويات

- مقدمة ٣
- الفصل الأول : عمر بن الخطاب ٥
- نسبه وولادته ٥
- أوصافه وشخصيته ٥
- نشأته ٧
- ألقابه ٨
- زوجاته ٩
- الفصل الثاني : إسلام عمر ١٢
- الفصل الثالث : عمر خليفة ٢١
- مرض أبي بكر واستخلافه عمر ٢١
- لماذا لجأ أبو بكر إلى طريق الاستخلاف ٢٧
- خطة عمر في الحكم ٢٨
- الفصل الرابع : حركة الفتح في خلافة عمر ٣٢
- دوافع الفتح وهويته ٣٢

٣٤	- أهم الفتوحات في عهده
٣٤	أ - فتوح بلاد الشام والجزيرة
٤٠	ب - فتوح مصر والنوبة وبرقة وطرابلس
٤٤	ج - فتوح العراق وبلاد فارس
٤٩	- الفصل الخامس : عمر وتنظيم الدولة
٤٩	- إنشاء الدواوين
٥٤	- التقسيمات الإدارية
٥٧	- إنشاء المدن والعواصم
٦٢	- القيام بالمشروعات العامة
٦٦	- تنظيم القضاء
٧٤	- النظام الإقتصادي
٧٨	- الفصل السادس : عدالة عمر
٧٨	- مقومات العدالة عند عمر
٧٩	- أشكال العدالة عند عمر
٩٤	- الفصل السابع : مقتل عمر بن الخطاب
٩٤	- حادثة الإغتيال
٩٨	- شورى « الستة » في الخلافة بعد عمر
١٠٢	- خاتمة
١٠٣	- المحتويات

تطمح سلسلة « مشاهير وأحداث إسلامية » إلى أن تضع بين يدي القارئ الكريم زاداً ميسراً من سير أبرز أعلام المسلمين الذين كانوا عنواناً للحدث ، مراعية في اختيارها لهم الفرادة في الحضور التاريخي والتأثير في مجرى الأحداث .

- | | |
|---------------------------|--------------------------|
| ● موسى بن نصير | ● الرسول ﷺ |
| ● طارق بن زياد | ● أبو بكر الصديق |
| ● عبد الرحمن الداخل | ● عمر بن الخطاب |
| ● هارون الرشيد | ● عثمان بن عفان |
| ● المأمون | ● علي بن أبي طالب |
| ● سيف الدولة الحمداني | ● خالد بن الوليد |
| ● نور الدين زنكي | ● عمرو بن العاص |
| ● صلاح الدين الأيوبي | ● أبو عبيدة بن الجراح |
| ● الظاهر بيبرس البندقداري | ● معاوية بن أبي سفيان |
| ● الناصر محمد بن قلاوون | ● زياد بن أبيه |
| ● عبد العزيز آل سعود | ● عبد الملك بن مروان |
| ● فيصل بن عبد العزيز | ● عمر بن عبد العزيز |
| ● جمال عبد الناصر | ● الحجاج بن يوسف الثقفي |
| | ● المغيرة بن شعبة الثقفي |